رواء

مجلة فكرية دورية

- نهضة سنغافورة: دروس ملهمة لسوريا المستقبل
- الحرب الإعلامية والمغالطات المشوشة
- كيف واجه الإسلام التحديات النفسية الحديثة؟
- الإدارة في السيرة النبوية: نموذج ملهم عبر العصور

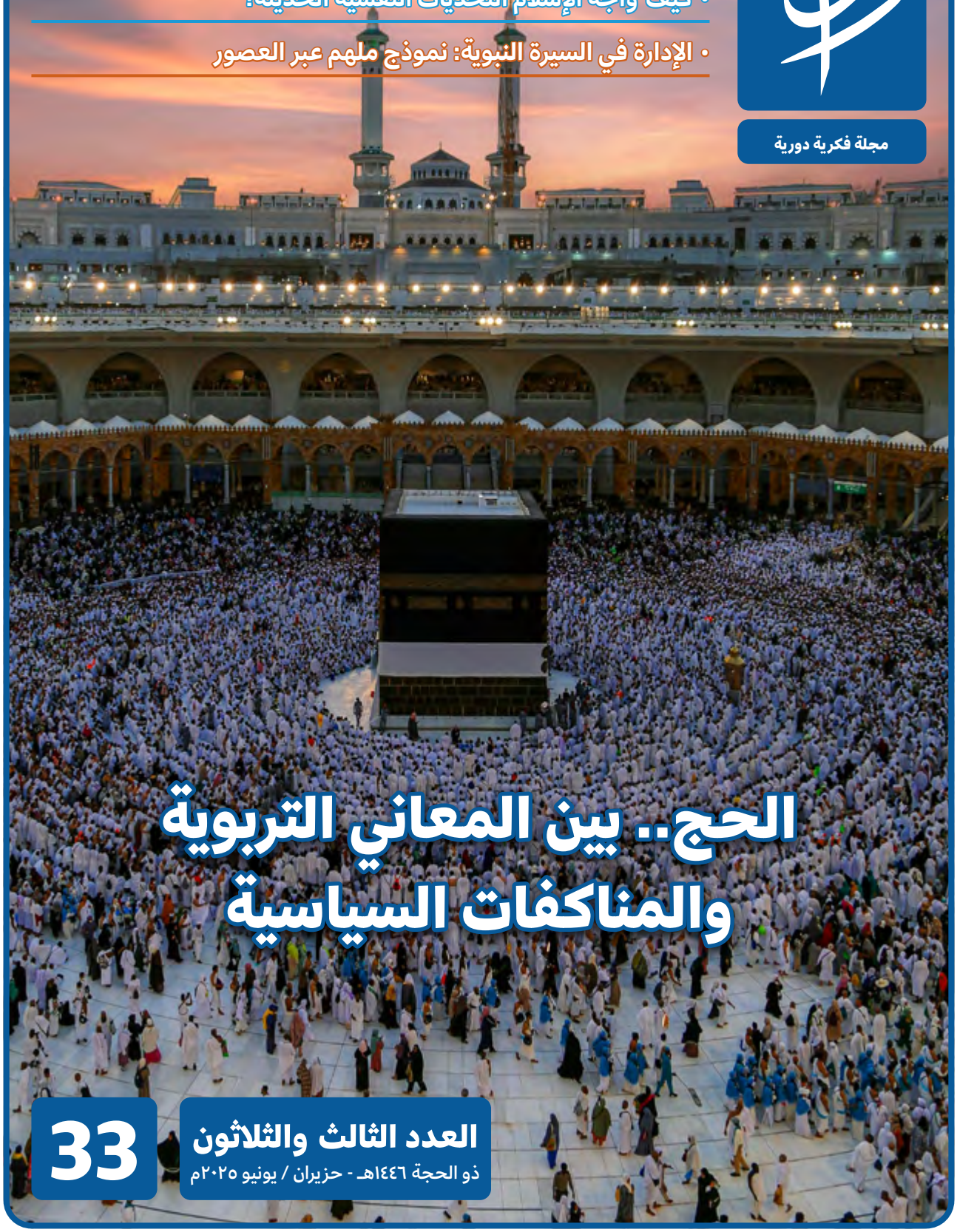

الحج.. بين المعاني التربوية والمناكفات السياسية

العدد الثالث والثلاثون

ذو الحجة ١٤٤٦هـ - حزيران / يونيو ٢٠٢٥م

33

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

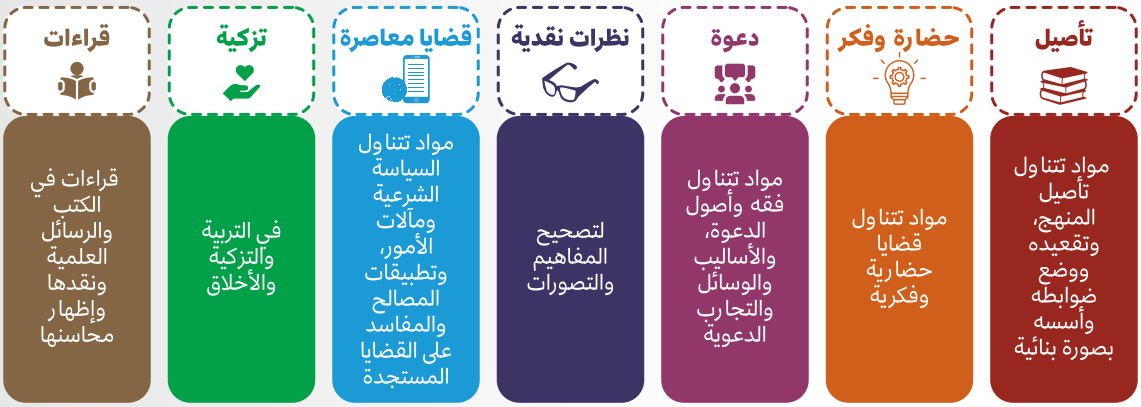

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

١ **الحج.. بين المعاني التربوية والمناكفات السياسية** ٢
الافتتاحية

٢ **نهضة سنغافورة: دروس ملهمة لسوريا المستقبل** ٧
د. مصطفى يعقوب

٣ **الحرب الإعلامية والمغالطات المشوشة** ١٤
أ. محمود درمش

٤ **قاعدة سد الذرائع وتطبيقاتها في السياسة الشرعية** ٢٠
د. علي مدني رضوان

٥ **تربية النفوس بالغاية والأهداف** ٢٧
أ. رأفت صلاح الدين

٦ **الإسلام والتنمية المستدامة: مقومات البناء الإنساني للمجتمعات** ٣٣
د. صبحي رمضان فرج سعد

٧ **دور القيادة الرشيدة في نهضة المجتمعات** ٤١
أ. عباس شريفة

٨ **كيف واجه الإسلام التحديات النفسية الحديثة؟** ٤٧
د. محمود حلمي

٩ **الإدارة في السيرة النبوية: نموذج ملهم عبر العصور** ٥٤
أ. عائشة جلال الأصفر

١٠ **قراءة في كتاب: «النظريات الأمنيّة وتطبيقاتها في العالم العربي» للدكتور بشير زين العابدين** ٦١
أ. أحمد أرسلان

١٢ **بأقلام القراء** ٦٦
مجموعة من القراء

١٣ **ذات الشَّوكَة** ٧٢
د.خير الله طالب

رواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

هيئة الشام الإسلامية

أسرة التحرير

رئيس التحرير
د. عماد الدين خيتي

سكرتير التحرير
أ. محمود درمش

فريق التحرير
أ. جهاد خيتي
أ. عبد الملك الصالح
أ. أحمد خالد أحمد

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org
rawaamagazine

كلمة التحرير

الحج.. بين المعاني التربوية والمناكفات السياسية

تجتمع في الحج أمهات العبادات في الإسلام، من شدّ للرحال إلى الأماكن المقدّسة، والمناسك، والصلاة والإنفاق والصوم والذكر والنحر، وهو مدرسة تربوية متكاملة أوجبه الله مرة في العمر على المكلف القادر؛ وما ذاك إلا لأنّه يقدّم للمسلم زادًا روحيًا خاصًا لا يحصل عليه من عبادة أخرى. وقد حجّ إلى البيت العتيق آدمُ عليه السلام ومَن بعده من الأنبياء، حتى جاء إبراهيم فرفع قواعدَه مع ابنه إسماعيل عليهما السلام، ثمّ أذّن في الناس بالحج؛ فأجابه مَن آمن ممن سبق في علم الله أن يحجّ إلى يوم القيامة، ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]؛ فحجّ موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء، وسيُهِلّ عيسى عليه السلام بالحج على شريعة محمد ﷺ في آخر الزمان.

هفو القلوب وسعي الأبدان:

مما يخلب الألباب هفو النفوس نحو بيت الله الحرام، فالمسلم أينما كان في أقاصي البلاد أو خلف المحيطات وشواهق الجبال وأعماق الأودية متعلّق القلب بهذه الفريضة العظيمة، يسعى جاهدًا لأدائها، ويبذل الغالي والنفيس في سبيلها، استجابة لأمر الله تعالى الذي أمر خليله إبراهيم عليه السلام أن يؤذن بالحج بقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، فأطاع عليه السلام أمر ربه وأذن بالحج، ولعل ما نراه من لهفة القلوب نحو البيت العتيق هو من آثار ذلك النداء، وهذه اللهفة تترجمها الألسن بترديد عبارة واحدة يقولها الجميع: «لبيك اللهم لبيك» وهم يغذون السير ويشدون الرحال، حتى إذا عادوا من ضيافة الرحمن أشعلوا أشواق ذويهم نحو بيت الله الحرام بما عاشوا من أحاسيس ومشاعر، تضاهي في تأثيرها أجواء شهر رمضان المبارك.

المؤتمر السنوي لوحدة المسلمين:

لا تتجسد وحدة المسلمين في شيء كما تتجسد في الحج، بل يمكننا اعتباره «مؤتمر الوحدة الإسلامية السنوي»، الذي يعبر فيه المسلمون -بأفرادهم لا بكياناتهم السياسية- عن وحدة حالهم ومقصدهم؛

فالربُّ واحد، والقبلة واحدة والتلبية واحدة، والزي واحد، والجميع يقصد المناسك ذاتها، يدفعهم إلى ذلك استجابتهم لشرع ربّهم واقتداؤهم بنبيّهم ﷺ، كما تضفي عليهم المشاعر المقدّسة وحركة الحجّاج فيها أجواءً ترتقي بأنفسهم فوق نزعات التفرد وصراعات الدنيا، وتزيل ما بينهم من حواجز تؤجج الفروقات أو العداوات، فيعود كل منهم بعد أن خالط إخوة له من شتى الألوان والأعراق واللغات في موسم لا يوجد له مثيل عند أي أمة من الأمم.

في مختلف أعمال الحج من تلبية، والتزام بمواقيت وخطوات المناسك، ونحر الهدي، والحرص على عدم خدش الإحرام بمخالفة؛ إعادة ضبط وجهة المؤمن بإخلاص العبادة نحو ربه وخالقه العظيم، وعلى طريقة نبيه ﷺ

إعادة ضبط البوصلة:

التلبية التي يرددها الحاج آلاف المرات خلال حجِّه في سعيه وخطواته: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك) تجسِّد أمرين عظيمين هما: توحيد الله، والتسليم له بالطاعة والانقياد؛ فلفظة «لبيك» تعني: «استجابةً لك»، وتجمع إلى الاستجابة الحب، وتأكيدُ انعدام الشريك مكررٌ في عبارة التلبية؛ للدلالة على نفي الشريك لله، وفيها حصر ما يرفع إلى الله من الحمد والشكر والعبادة له وحده، وحصر ما يحصل عليه العبد من النعمة والعطاء والمواهب المادية والمعنوية من الله وحده، وكلها تجمع معاني التوحيد والتسليم والانقياد له.

وفي الالتزام بمواقيت وخطوات المناسك وتتابعها الدقيق والمنظم، والحرص على عدم خدش الإحرام بمخالفة، والتأسي بالمصطفى ﷺ الذي قال: (لتأخذوا مناسككم)[1] درسٌ مهمٌّ في التسليم لله والاتباع لرسوله، ويكتمل ذلك عند إراقة الدماء ونحر الهدي، متذكرين رؤيا إبراهيم وتسليمه وابنه إسماعيل عليهما السلام لأمر الله عز وجل.

وفي جميع ذلك إعادة ضبط وجهة المؤمن بإخلاص العبادة نحو ربه وخالقه العظيم، وعلى طريقة نبيه ﷺ.

العدو المشترك:

منذ أن خلق الله آدم أعلن إبليس عداوته له ولذريته، فأبى أن يسجد له مع الملائكة، واستكبر واستعلى بأصل خلقته ظانًا أنه خير منه، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، ثم لما طرده الله من رحمته طلب إمهال أجَله إلى يوم الدين، فأذن الله له بذلك لحكمة يريدها جل وعلا، فأقسم إبليس قسمًا عظيمًا وحدّد غايته ومشروعه: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]، ومنذ ذلك الحين اشتعلت العداوة بين حزب الصالحين من بني آدم وحزب الشيطان وأوليائه، هذه العداوة تظهر آثارها في مجاهدة المؤمن نفسه لأَطْرِها على الحق، وتظهر في المجتمعات في مقاومة مشروعات الضلال والغواية والإفساد التي يحاول إبليس وأولياؤه نشرها بين الناس، وتتمثل بأجلى صورها في مشاهد الحج: بتجريد المتابعة لله ورسوله ﷺ في جميع أعمال الحج مع الحرص على عدم المخالفة، وتتأكد رمزية هذه العداوة والمدافعة في رمي الجمرات بحصوات تؤكّد مفارقة المسلم لطريق إبليس، والرغبة في دحره والانتصار عليه، فتكون النتيجة: (ما رؤي الشيطان يومًا هو فيه أصغرُ، ولا أدحرُ، ولا أحقرُ، ولا أغيظُ منه في يوم عرفة)[2].

جوائز الحج كثيرة؛ من الثواب العظيم، والميلاد الجديد، وجنة رب العالمين، مع أجر الجهاد في سبيل الله تعالى، ونظرة الرضا من رب العالمين، وهو سبب من أسباب الغنى ومضاعفة النفقة في الدنيا

جوائز الطهر وقلائد الغفران:

أما الجوائز: فحدّث ولا حرج عن الثواب الذي ينتظر الحاج إذا أدّى مناسكه وتجنّب ما يفسده من اللغو والجدل، إنّها لحظة ميلاد جديدة، وغسل لما مضى من صفحات العمر، وتجديد للعهد مع الرحمن

(١) أخرجه مسلم (١٢٩٧).
(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٥٩٧) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً.

الرحيم، قال ﷺ: (من حجَّ فلم يرفُث، ولم يفسُق، رجع كما ولدته أمه)[١]، أما إذا كان الحج مبرورًا أي: موافقًا للشرع عملاً واعتقادًا، ولم يخالطه شيء من الشرك والإثم والرفث والفسوق فله شأن آخر، فقد بشّر النبي ﷺ بأنّ: (الحجّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)[٢].

وجوائز الحج كثيرة، فهو من الجهاد، وكان عمر رضي الله عنه يسمّيه أحد الجهادين[٣]، وهو من أسباب الغنى ومضاعفة النفقة، كما في حديث (تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة)[٤]، و(النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف)[٥]، والحاج أحد ثلاثة في ضمان الله[٦]، وإذا أتت منيّته وهو في الحج فإنّه (يبعث يوم القيامة ملبيًا)[٧].

وليس أجمل من نظر الرحمن إلى أهل الموقف يوم عرفة نظرة الرضا، فيغدق عليهم من عطاياه، كما جاء في الحديث: (ما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة، ينـزل الله تعالى إلى سماء الدنيا، فيباهي بأهل الأرض أهل السماء، فيقول: انظروا إلى عبادي، جاؤوني شُعثًا غُبرًا ضاحِين، جاؤوا من كلّ فج عميق، يرجون رحمتي، ولم يروا عقابي، فلم يُرَ يومٌ أكثر عتقًا من النار من يوم عرفة)[٨].

الحج عبادة لا مساومات سياسية!

شرع الله الحج لإقامة ذكره والتقرب إليه بالعبادة والطاعة، وتحقيق التوحيد ومتابعة النبي ﷺ؛ لذا أمر بتعظيمه وتعظيم شعائره ومناسكه فقال: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وجعل من تعظيم الشعائر: الهدوء والطمأنينة حتى لا يشوش على الناس عبادتهم ويشغلهم عن مقصودهم الأعظم في التفرغ للعبادة، وتوعّد مَن رام فيها الفساد بوعيد عظيم، ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

ومن أعظم اللغو والفساد المعاصر: تحويل الحج إلى مناكفات أو مساومات سياسية، بجعله منبرًا أو مسرحًا للصراع السياسي، أو فرصة لتحقيق مكاسب سياسية، وإشغال الناس بذلك، وتهديد أمنهم وراحتهم فيه، ومن أبرز ما ظهر من ذلك خلال العقود الماضية:

> **من أعظم اللغو والفساد المعاصر في الحج: تحويلُ الحج إلى مناكفات أو مساومات سياسية، بجعله منبرًا أو مسرحًا للصراع والتكسُّب السياسي، وإشغالُ الناس بذلك، وتهديدُ أمنهم وراحتهم فيه بزعم إقامة مظاهر «البراءة من المشركين»، أو الدعواتُ إلى ما يسمى بتدويل الإشراف على الحرمين، مما يؤدي إلى صرف الناس وإشغالهم عن مناسكهم، وتسليط أهل الكفر والفجور على أقدس مقدسات المسلمين**

ما يسمّى (البراءة من المشركين): حيث زعمت الرافضة أنّها من أهم أعمال الحج، ودعا لها الهالك الخميني ضمن مشروعه في تصدير الثورة وترسيخ فكرة الولي الفقيه؛ فخرجت مظاهرات في مواسم الحج في عدد من السنوات تنادي بالعداء لأمريكا وإسرائيل! وأدّت إلى إثارة القلاقل وزعزعة الأمن في مواسم الحج، كان أعظمها في حج عام ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م) حيث أدّت أعمال الشغب التي نتجت عن هذه المظاهرات إلى مقتل المئات من الحجاج ورجال الأمن[٩].

المناداة بتدويل الإشراف على الحرمين، وقد كان الهالك القذافي أوّل من نادى بتدويل الحجّ ونقل إدارة المناسك والمشاعر المقدسة إلى لجان دولية مكوّنة من عدّة دول إسلامية وفق نظام معين، ثم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٨١٩) ومسلم (١٣٥٠).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩).
(٣) أخرجه عبد الرزاق (٨٨٠٨).
(٤) أخرجه الترمذي (٨١٠) وأحمد (٣٦٦٩).
(٥) أخرجه أحمد (٢٣٠٠٠).
(٦) أخرج الحميدي (١١٢١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة في ضمان الله عز وجل: رجل خرج من بيته إلى مسجد من مساجد الله عز وجل، ورجل خرج غازيًا في سبيل الله عز وجل، ورجل خرج حاجًا).
(٧) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٦٥) ومسلم (١٢٠٦).
(٨) أخرجه ابن خزيمة (٢٨٤٠)، ومعنى ضاحين: أي بارزين للشمس غير مستترين منها.
(٩) وفي توثيق هذه الحادثة عدّة مواد مصورة ومكتوبة يمكن الرجوع إليها، وقد كشفت التحقيقات قيام الرافضة بتهريب الأسلحة والمتفجرات إلى داخل المشاعر المقدّسة لاستخدامها في إثارة الفوضى وضد رجال الأمن وعموم المسلمين.

انتقلت الفكرة لعدد من الشخصيات التي أصبحت تنشُرها وتتحدّث بها لأهداف شتّى، وتطوّرت عند البعض للمناداة بإشراف أممي[1]!!

إنّ عاقبة هذه الدعوات هي تسليط أهل الكفر والفجور على أقدس مقدسات المسلمين، أو جعلها ميدانًا للصراع الذي يصرف الناس عن مقاصد الحج، وعن استغلال هذا الموسم الديني العظيم الذي يتفرّغ فيه الناس للعبادة والدعوة، ويستفيدون مما فيه مِن فُرص علمية ودعوية واجتماعية، وهذا يوجب مقاومة هذه الدعوات والحذر منها، وكشف مخاطرها، وتجنيب مقدّسات المسلمين الصراعات السياسية ومعاركها.

التزهيد بالحج والعمرة:

كثرت جراحات المسلمين في العصر الحالي حتى إنّ المسلم لا يكاد يفرغ من متابعة مصيبة حتى تفجأه أخرى، ولا يكاد يدعو للإسهام بالتخفيف عن المسلمين في بلد حتى تزاحمها دعوات لا تقل ضرورة عنها في بلد آخر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رَمــاني الدَهرُ بِالأَرزاءِ حَتّى
فُؤادي في غِــشاءٍ مِــن نِبــالِ

فَصِرتُ إِذا أَصــابَتني سِهامٌ
تَكَسَّرَتِ النِصالُ على النِصالِ

وفي خضمّ هذه الجراحات تظهر في المواسم دعوات لعدم التوجه للعمرة أو الحج بحجّة تحويل الإنفاق لحاجات المسلمين الأهمّ، أو عدم دعم الكفار؛ بدعوى أنّ أموال عمرتهم وحجّهم تجد طريقها -في نهاية المطاف- إلى الكفار الذين يحاربون المسلمين! وغير ذلك من الحجج الشبيهة.

إنّ هذه الدعوات -وإن صحّت نيّة بعض القائلين بها- بعيدةٌ كلّ البعد عن الواقع والشرع؛ فواقع المسلمين يقول إنّ الصراع بين الحقّ والباطل لا يتوقّف، ومآسي المسلمين ومصائبهم وحاجاتهم متكررة، ولكلٍّ سهمه ونصيبه من الدعم والإعانة، لكن لا يعني هذا توقُّف الحياة والعبادات لأجلها، كما أنّ وجود الأتراح والأحزان لا يعني توقُّف الأفراح ومنعها، ثم إنَّ هذه الدعوات لا تخلو من مناكفاتٍ سياسية وإن خفيت على بعض القائلين بها.

(١) هذه الدعوة ساقطة واقعًا؛ فالإشراف على أي محفل دولي مشابه وإدارته لا يمكن أن تقوم به إلا جهة واحدة، وإلا كان مصيره الفشل والفوضى، وما المناسبات السياسية والرياضية العالمية -مثلاً- التي تنظمها الدول المضيفة إلا أصدق دليل على هذا الأمر.

والزعمُ أنّ أموال الحجّاج تذهب لدعم الكفار ثم ترتد إلى صدور المسلمين؛ فيه جهلٌ بحقيقة تكاليف الحج، وبحقيقة الأموال المبذولة في عمارة وتشغيل الحرمين، وبحقيقة أن معظم المصاريف تذهب للقائمين على خدمة الحجاج من عموم المسلمين، وأن كثيرًا من القائمين على خدمة ضيوف الرحمن في هذه المواسم متطوعون من أهل الخير من أهل الحرمين وغيرهم، كما أن فيه جهلاً بالعلاقات بين الدول واتفاقياتها.

الزعمُ أنّ أموال الحجّاج تذهب لدعم الكفار ثم ترتد إلى صدور المسلمين؛ فيه جهلٌ بحقيقة تكاليف الحج، وبحقيقة ما يبذل في عمارة وتشغيل الحرمين، وبحقيقة أن معظم المصاريف تذهب للقائمين على خدمة الحجاج من عموم المسلمين، وأن كثيرًا من القائمين على خدمة ضيوف الرحمن متطوعون محتسبون من أهل الحرمين وغيرهم، كما أن فيه جهلاً بالعلاقات بين الدول واتفاقياتها

هل العواقب مدروسة؟

إنّ هذه الدعوات قد تُستغل من أطراف لا تريد الخير بالمسلمين، ويُخشى أن يكون فيها صدّ عن سبيل الله الذي حذّر الله منه أشد التحذير، فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

ومع شدة التحذير في الآيات السابقة فقد أمر تعالى بالعدل والإنصاف حتى مع من يصد عن المسجد الحرام من المشركين! فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية ﴿ولا يَجْرِمَنَّكم شَنَآنُ قَوْمٍ﴾: «كان مقتضى الظاهر أن تكون الجملة مفصولة، ولكنها عطفت ترجيحًا لما تضمنته من التشريع على ما اقتضته من التعليل، يعني: أن واجبكم أن تتعاونوا بينكم على فعل البر والتقوى، وإذا كان هذا واجبهم فيما بينهم؛ كان الشأن أن يعينوا على البر والتقوى، لأن التعاون عليها يكسب محبة تحصيلها، فيصير تحصيلها رغبة لهم، فلا جرم أن يعينوا عليها كل ساع إليها، ولو كان عدوًا، والحج برٌّ فأعينوا عليه وعلى التقوى، فهم وإن كانوا كفارًا يعاونون على ما هو برّ؛ لأن البر يهدي للتقوى، فلعل تكرر فعله يقربهم من الإسلام. ولما كان الاعتداء على العدو إنما يكون بتعاونهم عليه نبهوا على أن التعاون لا ينبغي أن يكون صدًّا عن المسجد الحرام، وقد أشرنا إلى ذلك آنفًا؛ فالضمير والمفاعلة في (تعاونوا) للمسلمين؛ أي: ليُعِنْ بعضُكم بعضًا على البر والتقوى. وفائدة التعاون تيسير العمل، وتوفير المصالح، وإظهار الاتحاد والتناصر، حتى يصبح ذلك خُلقًا للأمة»[1].

خاتمة:

التعامل الحكيم مع فريضة الحج، يكون بتيسيرها على الحجاج بتعليمهم مناسك الحج، وتيسير السبل التي يصلون بها إلى مبتغاهم ومقصدهم، أما التكلف في تبني دعوات لا تعلم مآلاتها، ولا يملك أحد ضمان نتائجها فليس من الحكمة في شيء.

إنّ أي تصريح أو تصرف يتعلّق بالحج ينبغي أن يوزن بميزان الشرع قبل إطلاقه؛ حتى لا يحمل في طياته الدعوة إلى تعطيل شعيرة من أعظم شعائر الإسلام، أو يدعو الحجاج إلى الشعور بالحرج والشعور بالإثم وكأنّهم ارتكبوا معصية من المعاصي!

فرَّج الله عن الأمة كربها ومآسيها، ووحَّد صفوفها، ومكَّن لدينه في مشارق الأرض ومغاربها.

التعامل الحكيم مع فريضة الحج، يكون بتيسيرها على الحجاج بتعليمهم مناسك الحج، وتيسير السبل التي يصلون بها إلى مبتغاهم ومقصدهم، أما التكلف في تبني دعوات لا تعلم مآلاتها، ولا يملك أحد ضمان نتائجها فليس من الحكمة في شيء

(١) التحرير والتنوير (٦/٨٧-٨٨).

نهضة سنغافورة: دروس ملهمة لسوريا المستقبل

د. مصطفى يعقوب (*)

يستعرض المقال تجربة سنغافورة التنموية باعتبارها نموذجًا يمكن الاستفادة منه في صياغة رؤية لنهضة سوريا المستقبلية، مع التأكيد على الفوارق الجوهرية بين السياقين؛ فبينما واجهت سنغافورة تحدّيات الفقر والتخلّف، تواجه سوريا آثار حرب مدمرة، ويؤكّد أنّ الاستفادة من التجربة السنغافورية لا تعني استنساخها، بل لا بدّ من تكييف مبادئها بما يتناسب مع الواقع السوري وخصوصيته. فكيف يمكن لسوريا أن تستفيد من هذه التجربة الملهمة؟ وما الدروس التي يمكن استخلاصها منها؟ هذا ما سنحاول استكشافه في هذا المقال.

مدخل:

تنهض الأمم من كبواتها حين تمتلك إرادة التغيير وبصيرة المستقبل، فمِن رحم المعاناة تولد العزائم الكبرى، ومن قلب الظلام تنبثق شعلة الأمل لتضيء دروب المستقبل، وحين نتأمل في مسيرة الشعوب التي نهضت من تحت الركام نجد قصصًا ملهمة لشعوب حولت المحن إلى منح، والتحديات إلى فرص، والعقبات إلى محطات لانطلاقة جديدة، وإذ تتطلع سوريا اليوم إلى المستقبل بعد سنوات طويلة من الحرب والدمار، فإنها تبحث عن نماذج ناجحة يمكن أن تستلهم منها دروسًا في النهضة والبناء.

تُعدُّ تجربة سنغافورة واحدةً من أكثر التجارب التنموية إثارة للإعجاب في العصر الحديث؛ فقد استطاعت هذه الجزيرة الصغيرة أن تقفز في أقل من نصف قرن من مصافِّ الدول النامية إلى نادي الدول المتقدمة، ورغم أن سنغافورة لم تخرج من حرب مدمرة، إلا أنها واجهت تحديات الفقر والتخلف والصراعات العرقية، وثمة دروس قيمة يمكن استخلاصها من تجربتها.

إن استحضارنا للتجربة السنغافورية في سياق البحث عن رؤية لنهضة سوريا المرتقبة ليس دعوة للاستنساخ الأعمى، بل محاولة لاستخلاص

(*) باحث متخصص في تطبيقات الذكاء الاصطناعي والدراسات القرآنية.

مبادئ وآليات يمكن تكييفها مع الواقع السوري بكل تعقيداته وخصوصياته؛ فسوريا اليوم تواجه تحديات فريدة تتمثل في إعادة بناء البنية التحتية المدمرة، ومعالجة الجراح النفسية والاجتماعية العميقة، وإعادة دمج ملايين اللاجئين والنازحين، وترميم النسيج الاجتماعي الممزق، وتحقيق المصالحة الوطنية، وهي تحديات لم تواجهها سنغافورة.

إن فلسفة النهضة السنغافورية قائمة على الاستثمار في الإنسان، وبناء المؤسسات القوية، ومحاربة الفساد، والتخطيط الاستراتيجي بعيد المدى، وإيجاد هوية وطنية جامعة في مجتمع متعدد الأعراق والثقافات، وتبني نموذجًا تنمويًا يجمع بين القدرة التنافسية العالمية والعدالة الاجتماعية.

تُعدُّ تجربة سنغافورة واحدةً من أكثر التجارب التنموية إثارة للإعجاب في العصر الحديث؛ فقد استطاعت هذه الجزيرة الصغيرة أن تقفز في أقلّ من نصف قرن من مصافّ الدول النامية إلى نادي الدول المتقدّمة، ورغم أنّ سنغافورة لم تخرج من حرب مدمرة، إلا أنّها واجهت تحدّيات الفقر والتخلّف والصراعات العرقية، وثـمّة دروس قيّمة يمكن استخلاصها من تجربتها

القيادة الرؤيوية والإرادة السياسية:

لم يكن لسنغافورة أن تشقّ طريقها نحو النهضة دون قيادة رؤيوية واضحة المعالم، فقد مثَّل «لي كوان يو» رمزًا للقائد الذي استطاع أن يحول جزيرة صغيرة فقيرة إلى قوة اقتصادية عظمى، وكانت الرؤية في ذهنه واضحة كوضوح الشمس في رابعة النهار؛ إذ قال: «لم نكن نملك أرضًا أو موارد طبيعية أو إمكانات مادية كبيرة، لكننا ملكنا المورد الأهم: العقل البشري».

تجلت عبقرية الرجل في قدرته على تحويل النقائص إلى محفزات للتطور؛ فقد حوَّل صغر المساحة إلى ميزة إدارية، وعدم وجود الموارد الطبيعية إلى دافع للابتكار والاستثمار في الإنسان، ولعل إحدى أهم الخطوات التي اتخذها كانت الحرب الشرسة على الفساد، وتأسيس نظام قضائي مستقل وعادل؛ إذ كان يقول: «إذا أردتَ أن تحارب الفساد، فكن مستعدًا لإرسال أصدقائك وأقاربك إلى السجن».

وفي سوريا نحتاج إلى قيادة تمتلك رؤية حضارية مشرقة تتجاوز المصالح الفئوية الضيقة، وتضع نصب عينيها مصلحة الوطن العليا، ومع زوال النظام الديكتاتوري الطائفي بعد عقود من الظلم والقهر، فإن الفرصة متاحة لبروز نخب قيادية جديدة، تؤمن بالعمل الجماعي، وتقدم المصلحة العامة على المنافع الشخصية، وتكون قادرة على اتخاذ قرارات صعبة وشجاعة في سبيل النهوض بالبلاد.

الاستثمار في رأس المال البشري:

أدركت سنغافورة مبكرًا أن العقل البشري هو الثروة الحقيقية لأي مجتمع يسعى إلى النهوض؛ فسخّرت الإمكانات المتاحة لتطوير العنصر البشري، وبناء منظومة تعليمية قوية تنافس أفضل النظم العالمية، إن ما يميز العمارات الشاهقة في سنغافورة ليس فقط ارتفاعها، بل العقول العملاقة التي صممتها وأدارتها.

يقول الدكتور «تونغ يونغ فونغ» وهو مفكر سنغافوري بارز: «بدأنا ببناء العقول قبل بناء المباني، وزرع القيم قبل زرع الحدائق»، وقد تمثل ذلك في تخصيص ٢٠٪ من الميزانية السنوية للتعليم، وإعطاء الأولوية المطلقة لاستقطاب أفضل الكوادر للعمل في مجال التدريس، مع توفير بيئة محفزة للإبداع والابتكار.

وفي سوريا يشكو التعليم من جراحات عميقة خلفتها الحرب وما سبقها من سنوات الإهمال والإفساد والتسييس الخاطئ، إن إعادة بناء المنظومة التعليمية يجب أن تكون أولوية قصوى في أي مشروع للنهوض بالبلاد، فالمدارس المدمرة يمكن إعادة بنائها، والمناهج المتهالكة يمكن تطويرها، أما العقول التي تتشكل في ظلام الجهل وغياب الرؤية فإنها تمثل خسارة لا تُعوَّض.

الحوكمة الرشيدة ومحاربة الفساد:

لعل أحد أهم الدروس المستفادة من التجربة السنغافورية هو أن الحوكمة الرشيدة تمثل حجر الأساس في أي مشروع نهضوي، فقد حاربت سنغافورة الفساد بضراوة لا هوادة فيها، وأسست

آليات صارمة للرقابة والمساءلة، وأرست قواعد الشفافية في جميع تعاملات الدولة.

من أبرز ملامح هذه المكافحة: تأسيس «مكتب التحقيقات في ممارسات الفساد» عام ١٩٥٢م، والذي مُنح صلاحيات واسعة واستقلالية كاملة، وقد وصل الأمر إلى اعتقال ومحاكمة وزراء ومسؤولين كبار بتهم الفساد، دون النظر إلى مكانتهم الاجتماعية أو صلاتهم السياسية.

ومن جانب آخر، اعتمدت سنغافورة نظامًا مبتكرًا لتحفيز الموظفين العموميين؛ إذ ربطت الرواتب العالية بالكفاءة والنزاهة؛ فالرئيس التنفيذي لهيئة حكومية في سنغافورة قد يكسب أكثر من بعض نظرائه في القطاع الخاص؛ لأن فلسفة الدولة تقوم على فلسفة: «If you pay peanuts, you get monkeys» والتي تعني «إذا دفعت أجورًا زهيدة، فستجذب موظفين غير أكفاء».

وفي سوريا يمثل الفساد أحد أكبر التحديات التي تقف أمام أي مشروع نهضوي، فقد تغلغل في بنية الدولة ومؤسساتها لعقود طويلة، وكان أساسًا في تعامل الدولة ورجالاتها، وفُرض حتى أصبح جزءًا من الثقافة السائدة، ولا يمكن تحقيق أي تقدم حقيقي دون استئصال هذا الداء من جذوره، وبناء مؤسسات قوية تقوم على أسس الشفافية والمساءلة وسيادة القانون.

> **أمام سوريا فرصة كبيرة للنهوض من خلال قيادة تمتلك رؤية حضارية مشرقة تتجاوز المصالح الفئوية الضيقة، وتضع نصب عينيها مصلحة الوطن العليا، والاستثمار في رأس المال البشري من خلال إعادة بناء المنظومة التعليمية وإعطائها الأولوية القصوى**

التنمية الاقتصادية المتوازنة:

عندما أعلنت سنغافورة استقلالها عام ١٩٦٥م، كانت إحدى أفقر دول العالم؛ إذ كان معدل دخل الفرد لا يتجاوز ٥٠٠ دولار سنويًا، واليوم أصبحت من أغنى دول العالم؛ إذ يتجاوز متوسط دخل الفرد فيها ٦٠ ألف دولار سنويًا.

كما اعتمدت سنغافورة نهجًا اقتصاديًا فريدًا؛ فقد اتبعت سياسة الانفتاح على الأسواق العالمية، وجذب الاستثمارات الأجنبية، وتوفير بيئة أعمال مستقرة وجاذبة، مع تنويع اقتصادي ذكي ينتقل من صناعات كثيفة العمالة إلى صناعات قائمة على المعرفة والتكنولوجيا. وفي الوقت نفسه لم تترك الدولة مواطنيها فريسة لقوانين السوق القاسية؛ فقد طورت أنظمة متقدمة للضمان الاجتماعي، وشيدت مساكن عامة ذات جودة عالية يسكنها أكثر من ٨٠٪ من السكان، وطورت نظامًا صحيًا عالي الكفاءة والجودة.

وفي سوريا يواجه الاقتصاد تحديات هائلة؛ منها: تدمير البنية التحتية، وتراجع الإنتاج في مختلف القطاعات، وتدهور قيمة العملة، وتفشي البطالة، وهجرة رؤوس الأموال والكفاءات، مع وجود فرص كبيرة وواعدة، من إصرار الشعب على الإصلاح والخروج من الوضع الحالي، وتاريخ عريق ضارب في القدم، توافق ذلك مع رغبة دولية في رفع العقوبات وتشجيع إعادة الإعمار، وتؤكد التجربة السنغافورية أن الوضع الصعب ليس قدرًا محتومًا، بل يمكن تجاوزه بسياسات اقتصادية حكيمة تجمع بين الانفتاح على الأسواق العالمية والعدالة الاجتماعية، وبين تشجيع القطاع الخاص ودور الدولة الرقابي والتنظيمي.

التقدير الواقعي للموقع الجغرافي والتوازنات الدولية:

أدركت سنغافورة منذ البداية أهمية موقعها الجغرافي على خريطة العالم، واستثمرت ذلك بذكاء بالغ، وقد كان «لي كوان يو» واقعيًا في تعامله مع التحالفات الدولية؛ فلم يكن يعادي أحدًا من أجل العداء، ولم يكن يصادق أحدًا من أجل الصداقة، بل كان يتخذ مواقفه بناءً على المصلحة الوطنية العليا.

يقول في مذكراته: «عندما تكون صغيرًا وضعيفًا لا تستطيع أن تغيّر العالم، لكنك تستطيع أن تتكيّف معه بذكاء»، وقد حافظت سنغافورة على علاقات متوازنة مع الولايات المتحدة والصين في الوقت نفسه، ونجحت في تحويل موقعها الجغرافي من نقطة ضعف (صغر المساحة وقلة الموارد) إلى نقطة قوة (مركز تجاري ومالي عالمي).

ويكتسب هذا الدرس أهمية خاصة بالنسبة لسوريا التي تقع في منطقة جغرافية بالغة

أهم الدروس المستفادة من تجربة سنغافورة

الحساسية والتعقيد، وتتقاطع فيها مصالح القوى الإقليمية والدولية، فإعادة البناء تتطلب تقديرًا واقعيًا لهذه التوازنات، وتعاملاً ذكيًا مع مختلف الأطراف بما يخدم المصلحة الوطنية، بعيدًا عن الشعارات الفضفاضة والمواقف الأيديولوجية المتشنجة.

> **يمثّل الفساد أحد أكبر التحديات التي تقف أمام نهضة سوريا، ويواجه الاقتصاد تحديات هائلة نتيجة دمار البنية التحتية وتراجع الإنتاج وتدهور العملة وهجرة رؤوس الأموال والكفاءات، لكن أمامها فرصة كبيرة للنهوض من خلال محاربة الفساد، واستغلال موقعها الجغرافي، والتوازن في التعامل مع مختلف الأطراف بحكمة وبصيرة**

بناء الهوية الوطنية الجامعة:

تميزت سنغافورة بتنوعها العرقي والثقافي والديني؛ إذ يتكون مجتمعها من مزيج من الصينيين والملايويين والهنود وغيرهم، وكان التحدي الأكبر الذي واجههم هو كيفية بناء هوية وطنية جامعة في ظل هذا التنوع.

اعتمدت سنغافورة سياسة «تعددية متساوية»؛ فلم تفرض ثقافة أغلبية على أقلية، ولم تخضع لمطالب مجموعة عرقية أو دينية على حساب غيرها، بل أقرّت بالتنوع واعتبرته مصدر قوة لا ضعف، واعتمدت أربع لغات رسمية (الإنجليزية والماندرين والملايوية والتاميلية)، مع جعل الإنجليزية لغة التعليم والإدارة؛ لأنها محايدة ثقافيًا وتسهّل الاندماج في الاقتصاد العالمي.

كما عملت على تعزيز قيم المواطنة والتسامح والاحترام المتبادل من خلال المناهج التعليمية والبرامج الثقافية، وسنّت قوانين صارمة تجرّم خطاب الكراهية والتحريض ضد أي مجموعة عرقية أو دينية.

أما سوريا فهي تنتمي لإرث حضاري متقدم للغاية في التعايش بين المكونات المتنوعة، والعدل بينها، دون أن يزري ذلك بأي مكون أو يسلبه حقه، وقد حان الوقت لعودة هذه البصمة

الحضارية، وآن الأوان لتجاوز حقبة مظلمة من التمييز والتفرقة، بعيدًا عن المحاصصات الطائفية والانتماءات الضيقة.

لقد صاغ الإسلام منذ فجره صيغة متقدمة للمواطنة داخل مفهوم الأمة، يشعر فيه الجميع بانتمائهم، وبقدرتهم على نيل حقوقهم، في ثلاثية قيمية تدور بين الحرية والعدل والرحمة، وكما أن الانتصار في سوريا على النظام البائد يعزز بناء السلم الأهلي والتعايش المجتمعي، فكذلك تلمس الإرث الحضاري للشام وأهلها وهوية أبنائها سيكون بمثابة ضمانة حقيقية لهذا التعايش، وهو ما أكدت عليه كافة القوى السورية، ومن ذلك ما جاء في وثيقة المبادئ الخمسة التي أطلقها المجلس الإسلامي السوري: «المبدأ الرابع: الحفاظ على وحدة سوريا أرضًا وشعبًا واستقلالها وسيادتها وهوية شعبها. والمبدأ الخامس: رفض المحاصصة السياسية والطائفية».

> **تنتمي سوريا لإرث حضاري متقدم للغاية في التعايش بين المكونات المتنوعة، والعدل بينها، دون أن يزري ذلك بأيّ مكون أو يسلبه حقه، وقد حان الوقت لعودة هذه البصمة الحضارية، وآن الأوان لتجاوز حقبة مظلمة من التمييز والتفرقة، بعيدًا عن المحاصصات الطائفية والانتماءات الضيقة**

ثقافة الإنجاز والانضباط:

لم تكتفِ سنغافورة بتأسيس أطر قانونية ومؤسسية للنهوض، بل عملت على تكوين ثقافة مجتمعية تُعلي من قيم العمل والإنجاز والانضباط، وقد نجحت في غرس قيم إيجابية في المجتمع، مثل:

المسؤولية الفردية: كان شعار «لي كوان يو» دائمًا: «لن نكون مجتمعًا من المتسولين الذين ينتظرون الإعانات»، وكان يؤمن بأن على كل فرد أن يبذل قصارى جهده لتحسين ظروفه.

الجدارة والاستحقاق: رفضت سنغافورة مبدأ المحاباة والمحسوبية، وأصبحت الكفاءة هي المعيار الأساسي للتقدم في السلم الوظيفي والاجتماعي.

الانضباط واحترام القانون: وضعت سنغافورة قوانين صارمة للمحافظة على النظام العام والنظافة والسلامة، وطبّقتها بحزم على الجميع دون استثناء.

ولا شك أن تكوين ثقافة مجتمعية إيجابية في سوريا سيكون عاملاً حاسمًا في نجاح أي مشروع نهضوي، فمن الضروري تعزيز قيم العمل والإنتاج واحترام القانون والتعايش السلمي، ومحاربة ثقافة الاتكالية والفساد والمحسوبية التي تفشت خلال العقود الماضية.

التخطيط طويل المدى والمرونة في التنفيذ:

تميزت سنغافورة بقدرتها على وضع خطط إستراتيجية طويلة المدى، مع مرونة في التنفيذ تسمح بالتكيف مع المتغيرات المتسارعة، وقد أنشأت «مجلس التخطيط الوطني» الذي يضع خططًا خمسية وعشرية، ويراجعها بصورة دورية لضمان ملاءمتها للمستجدات.

ومن الأمثلة البارزة على ذلك: التدرج في التنمية الصناعية؛ فقد بدأت سنغافورة بصناعات كثيفة العمالة (مثل المنسوجات والإلكترونيات البسيطة) في الستينيات؛ ثم انتقلت إلى صناعات ذات قيمة مضافة أعلى (مثل بناء السفن والبتروكيماويات) في السبعينيات؛ ثم ركزت على خدمات تكنولوجيا المعلومات والخدمات المالية في الثمانينيات؛ وأخيرًا أصبحت مركزًا عالميًا للبحث والتطوير والابتكار في العقود الأخيرة.

وفي سوريا تبرز أهمية وضع خطة وطنية شاملة لإعادة الإعمار، تتجاوز التفكير قصير المدى والحلول المؤقتة، وتضع أسسًا متينة لنهضة حقيقية ومستدامة، ولا بد أن تكون هذه الخطة واقعية وقابلة للتنفيذ، وأن تكون سهلة الاستيعاب من جميع فئات المجتمع التي ستتأثر بها، وأن يتم نشرها والإعلان عنها لكي تتبناها جميع عناصر المجتمع السوري: الأفراد والمؤسسات، تأخذ في الاعتبار الظروف المحلية والإقليمية والدولية، وتسمح بالمرونة والتكيف مع المتغيرات المتسارعة.

الاستثمار في التكنولوجيا والبنية التحتية:

تُعد سنغافورة نموذجًا عالميًا في الاستثمار الذكي في التكنولوجيا والبنية التحتية، فقد أطلقت مشروع «الجزيرة الذكية» في التسعينيات، وكانت من أوائل الدول التي طبقت مفهوم «الحكومة الإلكترونية»،

واستثمرت بكثافة في شبكات الاتصالات والإنترنت فائق السرعة.

وفي مجال النقل طورت نظامًا متكاملاً يشمل شبكة مترو أنفاق حديثة، ونظام حافلات متطورًا، ومطارًا دوليًا يُعد من أفضل مطارات العالم، وميناءً بحريًا رائدًا، كما حققت اكتفاءً ذاتيًا في مجال المياه على الرغم من ندرتها، من خلال الاستثمار في تقنيات تحلية مياه البحر وإعادة تدوير المياه المستعملة.

ولا شك أن إعادة بناء البنية التحتية المدمرة في سوريا تمثل تحديًا هائلاً، لكنها أيضًا فرصة لتأسيس بنية تحتية عصرية ومستدامة، ويمكن الاستفادة من التجربة السنغافورية في هذا المجال، خصوصًا في توظيف التكنولوجيا لتحسين أداء المؤسسات العامة، وتطوير النقل العام، وإيجاد حلول مبتكرة لمشكلات المياه والطاقة.

> **من الجوانب الملهمة لسوريا في التجربة السنغافورية: العمل على تكوين ثقافة مجتمعية إيجابية، وتعزيز قيم العمل والإنتاج واحترام القانون والتعايش السلمي، وإعادة بناء البنية التحتية المدمرة في سوريا بطريقة عصرية ومستدامة، مع الاستثمار الذكي في التكنولوجيا، وتطبيق مفهوم «الحكومة الإلكترونية»، والاستثمار بكثافة في شبكات الاتصالات والإنترنت فائق السرعة**

البعد البيئي والاستدامة:

على الرغم من كونها دولة صناعية وتجارية متقدمة، فقد حرصت سنغافورة على المحافظة على البيئة وتحقيق التنمية المستدامة، وأطلقت على نفسها لقب (Singapore – A City in a Garden) أي: سنغافورة- مدينة في حديقة، وهي تعكس الرؤية التي تتبناها في التخطيط الحضري؛ حيث تسعى لدمج الطبيعة والمساحات الخضراء ضمن النسيج العمراني للمدينة، بحيث تتحول المدينة بأكملها إلى جزء من حديقة كبرى وتحافظ على التنوع البيولوجي.

وفي مجال الطاقة تُعد سنغافورة من أوائل الدول التي طبقت ضريبة على الكربون، واستثمرت بكثافة في مصادر الطاقة المتجددة، خصوصًا الطاقة الشمسية، كما طورت نظامًا متقدمًا لإدارة النفايات وإعادة التدوير.

وفي سوريا يمكن محاكاة التجربة في إعادة البناء وفق معايير بيئية مستدامة، والاستثمار في الطاقة المتجددة التي تمتلك سوريا إمكانات هائلة فيها (خصوصًا الطاقة الشمسية)، وتطوير زراعة مستدامة تحافظ على الموارد المائية المحدودة، وتلبي احتياجات السكان.

الخاتمة- دروس مستفادة وآفاق مستقبلية:

في نهاية هذه الرحلة المثرية في ثنايا التجربة السنغافورية، نقف بإجلال أمام قصة نجاح استثنائية صنعتها إرادة شعب وحكمة قيادة، إنها قصة تلهمنا وتعلمنا أن النهوض من تحت الركام ليس مستحيلاً، وأن الانتقال من الفقر إلى الغنى، ومن التخلف إلى التقدم، ومن الفوضى إلى النظام، ليس حلمًا بعيد المنال، بل هو هدف يمكن تحقيقه بالتخطيط السليم والعمل الدؤوب والتضحيات المخلصة.

لقد قدمت سنغافورة نموذجًا فريدًا في التنمية، يجمع بين الحكمة في استثمار الموارد، والبراغماتية في التعامل مع المتغيرات، والمرونة في تبني السياسات، وفي تجاوز التصنيفات الأيديولوجية الجامدة.

وفي سوريا التي تنفض عنها غبار حقبة طويلة من القهر والظلم والحرب، نجد أنفسنا أمام فرصة تاريخية لإعادة بناء الوطن على أسس متينة، ووضعه على مسار تنموي مستدام، ويمكننا تلخيص أهم الدروس المستفادة من التجربة السنغافورية في النقاط الآتية:

- أولاً: أهمية القيادة الواعية والرؤيوية؛ فالدولة تحتاج إلى قيادة تمتلك الرؤية والإرادة، وتضع مصلحة الوطن فوق كل الاعتبارات.
- ثانيًا: دور المؤسسات القوية والرشيدة؛ فالنظم الديكتاتورية تخلق مؤسسات ضعيفة وخاضعة، ولا بد من إعادة بناء مؤسسات قوية ومستقلة ومحترفة.
- ثالثًا: أهمية الاستثمار في رأس المال البشري؛ فالعقول المبدعة هي أثمن ما تملكه الأمم، وهي ما يصنع الفارق بين الشعوب.

- رابعًا: الحوكمة الرشيدة ومحاربة الفساد؛ فلا يمكن بناء دولة عصرية وقوية في ظل الفساد وانعدام المساءلة.
- خامسًا: الانفتاح على العالم والتعامل الذكي مع المتغيرات الدولية؛ فالانعزال والانكفاء على الذات لا يمكن أن يكون خيارًا في عالم مترابط ومتسارع التغير.
- سادسًا: التوازن بين النمو الاقتصادي والعدالة الاجتماعية؛ فالنمو الذي لا يحقق منافع عادلة لجميع أفراد المجتمع لن يكون مستدامًا، ولن يحقق الاستقرار المنشود.
- سابعًا: تعزيز الهوية الوطنية الجامعة والتمسك بمبدأ المواطنة المتساوية؛ فالتنوع ثروة إذا أُحسن استثماره، وقوة الأمم تكمن في وحدتها وتماسكها.
- ثامنًا: بناء ثقافة العمل والإنجاز والانضباط؛ فالنهضة ليست مشروعًا حكوميًا فحسب؛ بل هي مشروع مجتمعي شامل يشترك فيه الجميع.

ولعل هذه الدروس تتكامل مع ما يمكن استلهامه من تجارب دول أخرى عانت من ويلات الحروب ونجحت في تجاوزها، مثل ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية، ورواندا بعد الإبادة الجماعية.

ومع ذلك لا بد من التأكيد على أن النهوض لا يعني التقليد الأعمى للتجارب الخارجية؛ فلكل مجتمع خصوصيته وظروفه وتحدياته، كما أن النهضة ليست مشروعًا ماديًا بحتًا؛ بل هي مشروع حضاري متكامل يشمل البعد الروحي والأخلاقي والثقافي؛ فالمال وحده لا يصنع أمة، والعمارات الشاهقة وحدها لا تبني إنسانًا.

إن الطريق نحو بناء سوريا من تحت الركام طويل وشاق، وسيتطلب تضحيات جسامًا وصبرًا طويلاً، ولكن ما من شك في أن الأمة التي صبرت على الظلم والقهر لعقود طويلة، ودفعت ثمنًا باهظًا من دماء أبنائها وعرقهم ودموعهم من أجل الحرية والكرامة، قادرة -بإذن الله- على صناعة نهضتها وبناء مستقبلها

وهنا تبرز أهمية الهوية العربية الإسلامية كإطار جامع للنهضة المنشودة؛ فهي منبع الأصالة والقيم، وركيزة الانتماء والمقاومة، وضمان الاستمرارية في وجه التحديات، ولعل هذا ما يوازن الاقتباس من التجربة السنغافورية؛ إذ يمكننا الاقتباس من آلياتها وتطبيقاتها، مع الحفاظ على روحنا وقيمنا وهويتنا.

إن الطريق نحو بناء سوريا من تحت الركام طويل وشاق، وسيتطلب تضحيات جسامًا وصبرًا طويلاً، ولكن ما من شك في أن الأمة التي صبرت على الظلم والقهر لعقود طويلة، ودفعت ثمنًا باهظًا من دماء أبنائها وعرقهم ودموعهم من أجل الحرية والكرامة؛ قادرة -بإذن الله- على صناعة نهضتها وبناء مستقبلها.

اللهم وفقنا لما تحب وترضى، واهدنا سبل الرشاد والفلاح، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، واجعل أعمالنا خالصة لوجهك الكريم، واجعل بلادنا وبلاد المسلمين آمنة مطمئنة، يعمها العدل والخير والبركة، آمين.

الحرب الإعلامية والمغالطات المشوشة

أ. محمود درمش (*)

للحرب الإعلامية التي يشنها أعداء الله على الإسلام صور كثيرة وأشكال متنوعة، تهدف في كثير منها إلى تضليل الرأي العام، وتشويش صورة أهل الحق، من خلال افتراء الأكاذيب عليهم وتضخيم أخطائهم، حتى يظن عامة الناس ضياع الحق واستواء الأطراف في تشوه السمعة وفقدان القيم، وهذه المقالة تتناول إحدى هذه الأساليب بشيء من التفصيل.

في السنة الثانية من الهجرة بعث رسول الله ﷺ بعضَ أصحابه في سريةٍ لتعقُّب أخبار قريش في مكان قريب من مكة، فلما وصلوا إلى المكان المقصود صادفوا عيرًا لقريش، وكان ذلك في آخر ليلة من جمادى وأول ليلةٍ من رجب، فأصابهم شكّ: هل لهذه الليلة حكم جمادى أم حكم رجب؟ فرجَّحوا أن حكمَها بحكمِ جمادى الآخرة، وأن رجبًا لم يدخل بعد، فهاجموهمَ وقتلوا منهم واحدًا وأسروا اثنين وأفلت واحد، وأخذوا ما معهم من العير والمتاع.

فلما عادوا إلى المدينة قال لهم رسول الله ﷺ: (ما أمرتكم بقتالٍ في الشهر الحرام!) فوقف العيرَ والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك سُقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا[1].

أما قريش فقد فجرت في الخصومة، «وانطلقت الدعاية المضللة على هذا النحو بشتى الأساليب الماكرة التي تروج في البيئة العربية، وتظهر محمدًا وأصحابه بمظهر المعتدي الذي يدوسُ مقدَّسات العرب، ويُنكر مقدساته هو كذلك عند بروز المصلحة!»[2]، وقالوا: محمد يزعم أنه يتَّبع طاعة الله، وهو أول من استحلَّ الشهر الحرام، وقَتَلَ صاحبَنا في رجب![3].

(*) كاتب في قضايا التربية والفكر.

(١) سيرة ابن هشام (٦٠٣/١).

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٢٢٦/١).

(٣) تفسير الطبري (٦٥٥/٣).

التوجيه نحو الصورة الكلية:

في هذه الحادثة ضخّمت قريش من الخطأ الذي حصل، وصارت تنشر دعاية أنَّ محمدًا ﷺ يستحلُّ الشهر الحرام، مع أنه يزعم أنه يطيع الله! ومعلوم أنَّ هذا ليس صحيحًا؛ لأنَّ النبي ﷺ لم يأمر أصحابه باستحلال الشهر الحرام، بل أول ما فعله عندما عادوا هو عدم إقرارهم على ما فعلوا، حتى أصابهم غم شديد.

فكان جواب القرآن بتغيير المنظور في القصة، بالخروج من هذه الجزئية المتعلقة بالقتل في الشهر الحرام، والتوجيه إلى الصورة الكلية، التي يتضح عندها أن هذا الخطأ (الذي لا يقره النبي ﷺ) هو مجرَّد تفصيلةٍ صغيرة في صورة كبيرة مفادها أن قريشًا تستنكر هذا الفعل وتشنع عليه وهي واقعة فيما هو أشد منه وأكبر وأعظم، وهو الكفر بالله والصد عن سبيله، ومنع الناس من سماع صوت الإيمان، ومحاربة المؤمنين وإخراجهم من بيوتهم، وبيّن القرآن بعبارة صريحة أن ما تفعله قريش من الكفر والصد عن سبيل الله أكبر من القتل، خصوصًا أنه يحصل منهم بإرادة ممنهجة وقصد صريح، فكيف يساوى هذا بقتلٍ حصل خطأً بشبهةٍ مشكلةٍ؟ وأصحاب القاتل لا يُقرونه عليه!

ونزل عندها قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

> **في حادثة انتهاك الشهر الحرام وجَّه القرآن الكريم إلى تغيير المنظور في القصة، بالخروج من جزئية القتل في الشهر الحرام، والتوجيه إلى الصورة الكلية التي يظهر فيها أن هذا الخطأ هو مجرَّد تفصيلةٍ صغيرة في صورة كبيرة مفادها أنَّ من يشنِّع على المسلمين واقع فيما هو أشد وأكبر منه جرمًا وخطأً**

الاكتفاء بالتفاصيل الجزئية سلوك مضلل:

الغرق في التفاصيل والانهماك في الجزئيات أو الاكتفاء بها؛ يُضيع الحق الكلي الواضح ويشوش عليه، وقد يحصل من الإنسان دون وعي منه سواء كان في مجال طلب العلم أو التأليف أو ممارسة السياسة أو المناقشات الفكرية، وقد حذر منه العلماء والمفكرون قديمًا وحديثًا، قال الشاطبي رحمه الله: «ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد، وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها لبعض، فإنَّ مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين، إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها، وجزئياتها المرتبة عليها» إلى أن قال: «فشأن الراسخين: تصوُّر الشريعة صورةً واحدةً يخدم بعضها بعضًا، كأعضاء الإنسان إذا صُورت صورةً متحدة، وشأنُ متَّبعي المتشابهات: أخذُ دليلٍ ما -أي دليل كان- عفوًا وأخذًا أوليًا، وإن كان ثَمَّ ما يُعارضه من كلي أو جزئي، فكانَ العضو الواحد لا يعطي في مفهوم أحكام الشريعة حكمًا حقيقيًا»[(١)]. «فالنظرة الشمولية المنسجمة للشريعة وأحكامها لا تتأتى إلا لمن خبروا المقاصد وأحكموا الكليات، ثم نظروا في الأحكام من خلال ذلك. ومن فاته هذا المستوى وأهمل هذا النوع من النظر وقع في التخبط والاضطراب»[(٢)].

وقال الزركشي في سياق أهمية العناية بالكليات إلى جانب الجزئيات: «الحكيم إذا أراد التعليم لا بد أن يجمع بين بيانَين: إجمالي تتشوَّف إليه النفوس، وتفصيلي تسكن إليه»[(٣)].

وبيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية أنَّ من العدل ردَّ الجزئيات إلى الكليات، وأن انعدام ذلك يوقع في الكذب والظلم، فيقول: «لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية تُردُّ إليها الجزئيات؛ ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات؛ فيتولد فساد عظيم»[(٤)].

ويرى الشيخ محمد الغزالي أنَّ الاشتغال بالجزئيات على حساب الكليات يؤدي إلى أمرين خطيرين: الأول: ضعف الخُلق مع الالتزام بالشعائر

(١) الاعتصام (٢٤٤/١-٢٤٥).
(٢) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، لأحمد الريسوني، ص (٣٣٢).
(٣) المنثور في القواعد (٦٥/١-٦٦).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٠٣/١٩).

الظاهرة، والثاني: العجز عن فقه الدنيا وأسباب التمكين والقوة الواجبة[١].

وهذه المنهجية ليست لدى علماء الإسلام فحسب، بل تجدها عند الفلاسفة والمفكرين من غيرهم، يقول كين ويلبر: «إن أي مقاربة جزئية أو أحادية الجانب للواقع محكوم عليها بالفشل؛ لأن الحقيقة متعددة الأوجه وتتطلب تكاملاً بين مختلف المنظورات»[٢].

الانهماك في التفاصيل أو الاكتفاء بجزئية واحدةٍ في الحكم يُضيع الحق الكلي الواضح ويشوش عليه، وقد يحصل من الإنسان دون وعي أو قصد، وهذا قد يكون مغتفرًا في سياق التعلّم والبحث الدراسي والحوار، لكن استخدام هذه الأساليب بشكل مقصود أسلوب دنيء، يقوم به المغرضون من ذوي النوايا الخبيثة

مغالطة ظاهرة:

من المغالطات المشهورة ما يسمى بمغالطة «التعميم المتسرّع»، وفيها يتم الوصول إلى التعميم الاستقرائي بناءً على دليل غير كافٍ، من خلال عينة واحدة أو عدة أمثلة غير كافية، وقد تسمى «التعميم المفرط (Hasty Generalization)»، وقريب منها أسلوب «الالتقاط (Cherry Picking)» والذي يحصل فيه الإشارة إلى حالات فردية من البيانات التي يبدو عليها تأكيد رؤية ما، مع تجاهل جزء كبير من الحالات أو البيانات التي تعارض هذه الرؤية. ومن تطبيقاتها الشائعة: «الانحياز التأكيدي»[٣].

وهذه الأساليب قد تقع دون قصد تسرعًا أو غفلة، وهذا قد يكون مغتفرًا في سياق التعلم والبحث الدراسي والحوار، لكن استخدامها بشكل مقصود أسلوب دنيء، يقوم به المغرضون من ذوي النوايا الخبيثة، يقول ريتشارد سومرفايل: «إن اختيار القيام بانتقاء بعض الأدلة الانتقائية من وسط أدلة متنافسة، بغية تعزيز نتائج تؤيد رؤية ما، مع تجاهل أو إنكار أي اكتشافات لا تؤيد هذه الرؤية؛ هو فعل يسمى «الالتقاطية»، ويعتبر سمة مميزة للعلوم الرديئة أو الزائفة»[٤].

وقد درج أعداء الله من الظالمين والمجرمين بأصنافهم على استخدام هذه الأساليب عند تشغيبهم على أهل الحق، ولديهم البراعة في استخدام هذه المغالطات والتركيز على جزئيات منتقاة يضخمونها، ويشوشون بها على الحقيقة المتمثلة في الصورة الكلية، ويمارسون التزييف ويبنون عليه أحكامًا، ومن أمثلته قول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: ١٩] مشيرًا إلى قتله للقبطي قبل خروجه إلى مدين، مع أن الصورة الكلية ترينا أنَّ فرعون هو الذي استباح بني إسرائيل، يَسومُهم سوء العذاب يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ويشغّلهم في الأعمال الشاقة، وقوله هذا إمعانٌ منه في التشويش والتزييف.

بالغت الآلة الإعلامية الدولية الضخمة في تجريم من لا يُدين هجمات السابع من أكتوبر، وحشدت العالم للتعاطف مع الصهاينة!! في إغراق واضح في جزئية صغيرة لا تمثل سطرًا من كتاب في عُمر فلسطين الحديث

وفيما يأتي بعض الأمثلة المعاصرة للتزييف الذي يمارسه المبطلون:

١. غزة وطوفان الأقصى:

فهذه فلسطين قد احتلها الصهاينة منذ ما يزيد عن ١٠٠ عام، فهجّروا أهلها واستباحوا أرضهم وهتكوا أعراضهم وانتهكوا مقدساتهم على مرأى من العالم ومسمع، وما يزالون يفعلون ذلك كل يوم، ومع ذلك أقاموا الدنيا ولم يقعدوها على اقتحام طوفان الأقصى في السابع من أكتوبر ٢٠٢٣م، فنُصبت الموازين وأقيمت المحاكم على ماذا؟ على

(١) هموم داعية، ص (١٢٩) (بتصرف).

(٢) نظرية كل شيء، كين ويلبر، ترجمة أحمد شمس الدين، ص (٥٢)، وكين ويلبر هو فيلسوف وكاتب أمريكي متخصص في علم النفس ما وراء الشخصي ومعروف بنظريته التكاملية، وهي فلسفة تقترح جمع كل المعرفة والخبرة البشرية.

(٣) ينظر: موسوعة ويكيبيديا، مواد: التعميم المفرط، الالتقاطية.

(٤) ريتشارد سومرفيل (Richard Somerville) عالم الأرصاد الجوية وباحث أمريكي، في شهادة أدلى بها أمام مجلس النواب الأمريكي للطاقة والتجارة في مارس ٢٠١١م (ويكيبيديا: مادة الالتقاطية).

أسر عدد من النساء معظمهنّ مجنّدات، وعلى أَسرِ بعض المسنّات، وأمور شبيهة هنا وهناك؟

وشرعت الآلة الإعلامية الدولية الضخمة تبالغ في تجريم مَن لا يدين هجمات السابع من أكتوبر، وتحشد العالم للتعاطف مع الصهاينة!! في إغراق واضح في جزئية صغيرة لا تمثل سطرًا من كتاب في عُمر فلسطين الحديث.

بينما لو نظرنا للصورة الكاملة فستنقلب الرواية، ويظهر إجرام الصهاينة في احتلالهم لأرض فلسطين، وفي قتلهم لأهلها وتهجيرهم منها، وسيظهر إلى جانب ذلك إجرام المجتمع الدولي في إقرار المحتل ومنحه الشرعية بالاعتراف بدولته ودعمها والدفاع عنها، وسيكون الخطأ المرتَكَب في عملية الطوفان أصغر من أن يُذكر أساسًا في مقابل فظائع وجرائم الاحتلال نفسه خلال ١٠٠ عام.

وهذا فضلاً عن أن هؤلاء الأسرى قد تلقوا من المعاملة الحسنة ما شهدوا به على مرأى من العالم ومسمع، في مقابل المعاملة السيئة التي يلقاها الأسرى عند دولة الاحتلال، وليس لأسرهم هدف سوى الضغط على الاحتلال أن يطلق في مقابلهم سراح الأسرى الفلسطينيين الذين أسروا دون وجه حق.

الدعم الذي قدّمته إيران للمقاومة والذي يخدم مصالحها بالدرجة الأولى وجعل كثيرًا من النخب ينظرون إلى الرافضة نظرة الرضا ويعتبرونهم داعمين للمقاومة ومجاهدين وشهداء؛ ليس إلا نقطة في بحر خياناتهم وجرائمهم، وليس بطولة منهم بقدر ما هو اختراق وتغلغل

٢. إيران ونصرتها للقضية الفلسطينية:

إيران الرافضية محاربة لدين الله، تتّهم ديننا بالنقص وقرآننا بالتحريف، وتكفّر صحابة نبينا ﷺ الذين نقلوا لنا الدين، وتطعن في أعراض أمهات المؤمنين، تشهد بذلك كتبهم التي ألّفها مراجعهم وما تنطق به ألسنتهم، وفوق ذلك لا تدَّخر إيران جهدًا في حرب المسلمين (أهل السنة) أو تشييعهم.

ولما قويت شوكتهم نفّذوا جرائم فظيعةً في أهل الإسلام في إيران وأفغانستان والعراق واليمن وسوريا ولبنان وما يزالون، وبخياناتهم تمكّن المحتل قديمًا وحديثًا في بلاد الإسلام.

ثم في إطار خطة إيران التوسعية وضمن استراتيجيتها في اختراق المجتمعات السنّية من

خلال استمالة الحركات والتنظيمات السنّية في أقطار كثيرة؛ جاء دعم الحركات المقاومة في فلسطين، ومع ارتفاع صوت المعركة؛ برز الدعم الإيراني بشكل كبير، واستغلّت إيران خيانة وعمالة معظم الحكومات العربية في المنطقة لتظهر أنّها الداعم الرئيس أو الوحيد للقضية الفلسطينية.

لكن هذا الدعم (والذي يخدم مصالح إيران بالدرجة الأولى) والذي جعل كثيرًا من النخب ينظرون إلى الرافضة نظرة الرضا ويعتبرونهم داعمين للمقاومة ومجاهدين وشهداء؛ ليس إلا نقطة في بحر خياناتهم وجرائمهم، وليس بطولة منهم بقدر ما هو اختراق وتغلغل.

٣. المحاولة الانقلابية الفاشلة في الساحل السوري ٦ مارس ٢٠٢٥م:

بعد أن منّ الله على بلاد الشام بالتخلص من حكم آل الأسد وجرائمهم، بقيت بقايا من منظومة الأسد المجرمة، كانت تعيش على نهب خيرات البلاد في ظل الطاغية البائد، وهؤلاء عرضت عليهم القيادة الجديدة التسوية والتفاهم الذي يجعلهم يفتحون صفحة جديدة، بالرغم من جراحات النفوس وآلام سنوات القهر والتدمير والتهجير.

لكن الفلول لما فقدوا امتيازاتهم ومصادر ثرواتهم لم يطب لهم العيش الآمن، ولا أن يكونوا من جملة الشعب بما لهم وما عليهم، بل أرادوها فتنةً طائفية هوجاء لا تبقي ولا تذر، مدفوعين بوعود خارجية من جماعات ودول فقدت امتيازاتها.

فأغاروا على مراكز الشرطة ودوريات الأمن، وأحدثوا فوضى عارمة في مناطق الساحل، فما كان من الدولة أمام هذا التمرّد إلا أن أرسلت قوات لردع التمرد وبسط سلطان الدولة، واستنفر لذلك متطوعون من كل أنحاء سوريا، وفي خضم المعارك الدامية وقعت تجاوزات من بعض مَن شارك، أنكرها جمهور الثورة، ولم تؤيدها الدولة بل تعهدت بمحاسبة من تسبب بها.

لكن فئات من الإعلاميين والمثقفين وغيرهم جعلوا هذه التجاوزات مساوية لجريمة تمرّد الفلول وتقويضهم لاستقرار البلاد، ونسوا أو تناسوا أنّ هؤلاء الفلول هم أنفسهم أذرعة وأسلحة العصابة الغاشمة التي حكمت البلاد ونهبت خيراتها، وهم الذين نفّذوا المجازر ورموا البراميل المتفجرة، وهدموا المدن على أهلها وهجّروهم شرقًا وغربًا، وجعلوا من البلاد أثرًا بعد عين، فساوَوا بين المجرم الأصيل الذي ما يزال مستمرًا في إجرامه، وبين آخرين ارتكبوا أخطاء في سياق حميَّتهم ودفاعهم عن استقرار الدولة، فأخذتهم الحمية واستزلهَّم الشيطان.

ومما لا يُستغرب أنَّ عددًا من الدول الغربية بَنَت مواقفَ على هذه التجاوزات متناسين أنهم سكتوا عن جرائم الإبادة الجماعية والمحرقة التاريخية التي أقامها المجرم بشار وأبوه الهالك دون أن يكون لهم دور في إيقافه أو ردعه مع قدرتهم على ذلك.

والأنكى أن تجد صفحات الفلول نفسَها ومظاهراتهم تستنكر وتُدندن حول هذه التجاوُزات التي وقع منهم أضعافُها، وتطالب بتدخل دولي لحماية الأقليات بسببها، مع أن الدولة قد تعهدت بالتحقيق فيها ومعاقبة مرتكبيها.

وكأن قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] ينطبق على حالتنا هذه، فيا سبحان الله!

إنَّ الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات، ويشدّد في هذا المبدأ ويصونه. ولكنه لا يسمح بأن تُتَّخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات، ويؤذون الطيبين، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر، وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان!

وقفة تدبرية في ظلال الآية:

يقول سيد قطب: «لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل. وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرّد ستار يحتمون خلفه، لتشويه موقف الجماعة المسلمة، وإظهارها بمظهر المعتدي.. وهم المعتدون ابتداء. وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداءً.

إن الإسلام منهج واقعي للحياة، لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة في قوالب نظرية. إنه يواجه الحياة البشرية -كما هي- بعوائقها وجواذبها وملابساتها الواقعية، يواجهُها ليقودها قيادةً

واقعية إلى السير وإلى الارتقاء في آن واحد، يواجهُها بحلولٍ عمليةٍ تكافئ واقعياتها، ولا ترفرف في خيالٍ حالمٍ، ورؤى مجنَّحةٍ لا تجدي على واقع الحياة شيئًا.

هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون، لا يقيمون للمقدَّسات وزنًا، ولا يتحرَّجون أمام الحُرُمات، ويدوسون كلَّ ما تواضع المجتمعُ على احترامه من خُلُق ودين وعقيدة، يقفون دون الحق فيصدُّون الناس عنه، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء، ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام! .. ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام، ويُقيمون الدنيا ويُقعدونها باسم الحرمات والمقدسات، ويرفعون أصواتهم: انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام!

فكيف يواجههم الإسلام؟ هل يواجههم بحلولٍ مثاليةٍ نظرية طائرة؟ إنه إن يفعل يجرّد المسلمين الأخيار من السلاح، بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح، ولا يتورعون عن سلاح..! كلا إن الإسلام لا يصنع هذا، لأنه يريد مواجهة الواقع لدفعه ورفعه، يريد أن يزيل البغي والشر، وأن يقلّم أظافر الباطل والضلال، ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة، ومن ثَمَّ لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناة، وهم في مأمن من رد الهجمات ومن نبل الرماة!

إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات، ويشدد في هذا المبدأ ويصونه، ولكنه لا يسمح بأن تُتَّخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات، ويؤذون الطيبين، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان! ... هذا هو الإسلام.. صريحًا واضحًا قويًا دامغًا، لا يلفُّ ولا يدور؛ ولا يدع الفرصة كذلك لمن يريد أن يلف من حوله وأن يدور.

وهذا هو القرآن يقف المسلمينَ على أرض صلبة، لا تتأرجح فيها أقدامهم، وهم يمضون في سبيل الله، لتطهير الأرض من الشر والفساد، ولا يدع ضمائرهم قلقة متحرّجة تأكلها الهواجس وتؤذيها الوساوس.. هذا شر وفساد وبغي وباطل.. فلا حرمة له إذن، ولا يجوز أن يتترس بالحرمات ليضرب من ورائها الحرمات! وعلى المسلمين أن يمضوا في طريقهم في يقين وثقة؛ في سلام مع ضمائرهم، وفي سلام من الله»[1].

العاقل ينظر للصورة الكلية فيعرف للفاضل فضله، وينكر على الجائر جَوره، ويضع الأشياء في مواضعها، وبغير هذا تتشوش الصورة وتطيش العقول ويختلط الحق بالباطل

الخلاصة:

للحرب الإعلامية التي يشنها أعداء الله على الإسلام صور كثيرة؛ إحداها: التركيز على جزئية انتقائية والحكم من خلالها، والتغافل عن الصورة الكلية، وهذا لا شك أنه ظلم بيِّن وحَيدةٌ عن الحق، وإخلال بالعقل والمنطق. والعاقل ينظر للصورة الكلية فيعرف للفاضل فضله، وينكر على الجائر جَوره، ويضع الأشياء في مواضعها، وبغير هذا تتشوش الصورة وتطيش العقول ويختلط الحق بالباطل.

ودور أهل الحجى وأولي الألباب بيان الصورة الكلية، وإخراج الناس من أسر التفاصيل الجزئية المقتَطَعة، نحو الصورة الكلية الجميلة للإسلام التي لا تقرّ ما قد يحصل من أخطاء بشرية في التطبيق، وفي ذات الوقت لا تقف أمام هذه الأخطاء موقف العاجز الذليل، كما أنّ مِن دَورهم إعادة الناس إلى ميادين العمل والإنتاج غير آبهين بمغالطات المبطلين وتشويشهم.

(١) في ظلال القرآن (١/٢٢٦-٢٢٧).

تأصيل

قاعدة سد الذرائع وتطبيقاتها في السياسة الشرعية

د. علي مدني رضوان (*)

صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان حقيقة ماثلة للعيان، وواقع مبرهن على صحته، وتجربة نجحت في نقل أمة الإسلام إلى سدة القيادة بين الأمم قرونًا متطاولة وعصورًا متتابعة، وحتى تكون هذه العبارة مفهومة للناس في هذا العصر لا بد من إظهار أسرار هذه الصلاحية وجواهرها ليعرفها القاصي والداني، وليسعد الناس في ظلها من جديد، وهذه المقالة تسلط الضوء على قاعدة سد الذرائع وتطبيقاتها المتعددة في السياسة الشرعية.

من رحمة الله بعباده أن حباهم بشريعته السمحاء التي اشتملت على ما فيه خير العباد في العاجل والآجل كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠].

وأي خير أعظم من حماية الأنفس والأعراض والأموال والعقول، وفوق ذلك دينهم الذي هو عصمة أمرهم! وهذه الأمور تعرف في الفقه الإسلامي بالضرورات الخمس، وهي مقصد أساسي من مقاصد التشريع، يقول الغزالي: «إنّ الشرع إنما جاء ليحفظ على الناس دينهم وأنفسهم وعقولهم وأنسابهم وأموالهم؛ فكل ما يؤدي إلى الإخلال بواحد منها فهو مضرة يجب إزالتها ما أمكن»[١].

ولما كان هدف الشريعة هو تحقيق مصالح الناس الضرورية والسهر عليها وإزالة المفاسد والأضرار عنهم؛ فقد وجب العمل بالسياسة الشرعية، والتي تعني: «تدبير الشؤون العامة للدولة الإسلامية، بما يكفل تحقيق المصالح ودفع المضار، مما لا يتعدى حدود الشريعة، وأصولها الكلية»[٢].

(*) دكتوراه في الشريعة الإسلامية، جامعة طنطا.

(١) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (١٨١/٢٨).

(٢) السياسة الشرعية، لعبد الوهاب خلاف، ص (١٥).

ولن يختلف العقلاء على هذا المعنى، بل ولن يخرج عن مجموع النصوص الشرعية، يقول الشاطبي: «اتفقت الأمة -بل سائر الملل- على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس؛ وهي: الدين والنفس والنسل والمال والعقل»[١].

قاعدة سد الذرائع:

الذريعة في معاجم اللغة: هي الوسيلة أو السبب إلى الشيء[٢]، وفي الاصطلاح الشرعي عرفها القرطبي بأنها: «أمر غير ممنوع لنفسه يُخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع»[٣].

وتدور تعريفات العلماء لها حول معنى: الوصول، فقال ابن العربي المالكي: «هي كل عمل ظاهر الجواز يتوصل به إلى محظور»[٤]، وقال ابن تيمية: «هي الفعل الذي ظاهره أنه مباح وهو وسيلة إلى فعل المحرم»[٥]، وعرفها الشاطبي بأنها: «التوسل بما هو مصلحة إلى مفسدة»[٦].

وبناء على ذلك فقد جاء الشرع بمنعها حتى لا يتوصل بها إلى الفساد، وهذا هو معنى سدّها.

وقد بنى الشاطبي قاعدة سد الذرائع على «النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعًا، سواء كانت الأفعال موافقة أو مخالفة؛ وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، مشروعًا لمصلحة فيه تستجلب أو لمفسدة تدرأ»[٧].

> **قاعدة سد الذرائع تعني: سدّ الطرق المؤدية إلى الفساد، وقطع الأسباب الموصلة إليه، وحسم مادة الفساد من أصلها**

مشروعية القاعدة:

دليل مشروعية قاعدة سد الذرائع من القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، قال ابن القيم: «فحرّم الله تعالى سب آلهة المشركين مع كون السب غيظًا وحمية لله وإهانة لآلهتهم؛ لكونه ذريعة إلى سبّهم الله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبّنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز لئلا يكون سببًا في فعل ما لا يجوز»[٨].

ومن أدلة مشروعية القاعدة من السنة: حديث عائشة ﵂: «أنّ أم حبيبة وأم سلمة ﵄ ذكرتا كنيسة رأيْنَها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي ﷺ، فقال: (إنّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات؛ بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)[٩]، وقول النبي عليه الصلاة والسلام: (فأولئك شرار الخلق عند الله) فيه نهى عن اتخاذ القبور مساجد، «قال المهلب: وإنما نهى عن ذلك -والله أعلم- قطعًا للذريعة، ولقرب عبادتهم الأصنام واتخاذ القبور والصورة آلهة»[١٠].

أمثلة تاريخية لقاعدة سد الذرائع:

١. عدم تجديد بناء الكعبة في زمن النبي ﷺ:

روت عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال لها: (يا عائشة، لولا أنَّ قومك حديثُ عهدٍ بجاهلية، لأُمرت بالبيت فهُدم، فأدخلتُ فيه ما أُخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا، فبلغت به أساس إبراهيم)[١١].

قال ابن حجر العسقلاني: «وفي الحديث: اجتناب ولي الأمر ما يتسرّع الناس إلى إنكاره، وما يخشى منه تولد الضرر عليهم في دين أو دنيا، وتألّف

(١) الموافقات (١/٣٨).
(٢) ينظر: لسان العرب، لابن منظور (٨/٩٦).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢/٥٧-٥٨).
(٤) أحكام القرآن، لابن العربي (٢/٢٦٥).
(٥) الفتاوى الكبرى (٦/١٧٢).
(٦) الموافقات (٤/١٩٩).
(٧) المرجع السابق (٥/١٩٤).
(٨) إعلام الموقعين (٣/١١٠).
(٩) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).
(١٠) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢/٨٢).
(١١) أخرجه البخاري (١٥٨٦).

قلوبهم بما لا يترك فيه أمر واجب، وفيه تقديم الأهم فالأهم من دفع المفسدة وجلب المصلحة، وأنهما إذا تعارضا بُدِئ بدفع المفسدة»[١].

فالنبي ﷺ امتنع عن إعادة بناء البيت على قواعد إبراهيم سدًا للذريعة ومنعًا لوقوع فتنة في نفوس حديثي العهد بالإسلام؛ وذلك لقدسية الكعبة في قلوبهم فيقع أمر تغييرها شديدًا عليهم.

٢. منع عُمر الزواج من الكتابيات:

وهذا مثال لسد الذرائع في عهد الصحابة رضوان الله عليهم، فقد منع الفاروق رضي الله عنه الصحابة من الزواج بالكتابيات من اليهود والنصارى؛ وذلك أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه تزوج بيهودية، فكتب إليه عمر أن يفارقها، وعلل ذلك بقوله: «إني أخشى أن تَدَعُوا المسلمات»[٢]، لقد خشي عمر من سوء استخدام المباح وما يترتب عليه من تعنيس المؤمنات، إضافة إلى الخطر المتوقع منهن لاطلاعهن على أسرار الدولة المسلمة إذا تزوج القادة والفاتحون من الكتابيات.

أساس وجود قاعدة سد الذرائع هو الأخذ بالاحتياط، والتحرُّز من كل طريق قد يؤدي إلى مفسدة أو ضرر، ويعمل على تدارك المشكلات قبل وقوعها

الفقهاء بين سد الذرائع وفتحها:

قاعدة سدِّ الذرائع معمولٌ بها في الفقه الإسلامي، وهي محل اتفاق بين الفقهاء في الجملة، قال القرافي رحمه الله: «فليس سد الذرائع خاصًا بمالكٍ رحمه الله، بل قال بها هو أكثر من غيره، وأصل سدها مجمع عليه»[٣]، وقال الشاطبي: «وإنما النزاع في ذرائع خاصة»[٤].

وقال الشاطبي رحمه الله: «قاعدة الذرائع متفق على اعتبارها في الجملة، وإنما الخلاف في أمر آخر»[٥].

ثم كان للفقهاء فيها اتجاهان:

الأول: يرى التوسع في سد الذريعة حتى لا يُتوصَّل عن طريق الوسائل إلى فعل محظور؛ فكل عقد جائز في الظاهر يؤول أو يمكن أن يتوصل به إلى محظور يجب سده[٦].

الثاني: يرى عدم التوسع في سد الذرائع حتى لا يوقع الأمة في حرج، وهؤلاء وإن ضيقوا فيها من ناحية تأصيلية، لكنهم عملوا بها من ناحية عملية.

والفرق بين الاتجاهين في تنزيل هذه القاعدة على تفاصيل المسائل وجزئياتها من خلال نظرهم لأصل المسألة.

أهمية القاعدة وتطبيقاتها:

يقول ابن القيم: «وباب سد الذرائع أحد أرباع التكليف؛ فإنه أمر ونهي، والأمر نوعان أحدهما مقصود لنفسه والثاني وسيلة إلى المقصود، والنهي نوعان: أحدهما ما يكون المنهي عن مفسدة في نفسه، والثاني ما يكون وسيلة إلى المفسدة، فصار سد الذرائع المفضية إلى الحرام أحد أرباع الدين»[٧]، وأساس وجود قاعدة سد الذرائع هو الأخذ بالاحتياط والتحرُّز من كل طريق قد يؤدي إلى مفسدة أو ضرر ويعمل على تدارك المشكلات قبل وقوعها، يقول السرخسي: «والأخذ بالاحتياط أصل في الشرع»[٨].

من الأهداف الكبيرة للشريعة الإسلامية: صيانة الدماء وتعظيم شأنها، ومن ثم سدَّت الشريعة كل ذريعة أو وسيلة من شأنها أنْ تصل بالضرر إليها. كما أنّ بعض الوسائل غير المشروعة لذاتها قد تتحوَّل إلى مشروعة لغيرها إذا كان في ذلك حفظٌ للأرواح وحماية لها

(١) فتح الباري (٣٧٤/٥).
(٢) السنن الكبرى، للبيهقي (٢٨٠/٧).
(٣) الفروق، للقرافي (٤٣/٢).
(٤) الموافقات (٦٦/٤).
(٥) المرجع السابق (١٨٥/٥).
(٦) ينظر: أحكام القرآن، لابن العربي (٢٦٥/٢).
(٧) إعلام الموقعين (١٥٣/٣).
(٨) أصول السرخسي (٢١/٢).

ويرى الشاطبي أنّ «الشريعة مبنية على الاحتياط والأخذ بالحزم والتحرز مما عسى أن يكون طريقًا إلى مفسدة»[١].

وهذا التحرز والاحتياط يدور مع قاعدة المصالح والمفاسد وأيهما يمكن تقديمه أو تأخيره عن طريق فقه الموازنات وواجب الوقت ومراعاة ظروف الحال، والمتفق عليه شرعًا هو أنّ درء المفاسد أولى من جلب المصالح؛ «فإذا تعارضت مفسدة ومصلحة: قدم دفع المفسدة غالبًا؛ لأنّ اعتناء الشرع بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات»[٢]، يتفرع عن ذلك «أنّ الضرر الخاص يُتحمل لأجل دفع الضرر العام، وهذا مقيِّد لقولهم: الضرر لا يزال بمثله»[٣]. وفيما يأتي جملة من تطبيقات القاعدة:

قررت الشريعة منع القاتل من الحصول على ميراثه من مورثه إذا قام بقتله، وهذا معناه: إغلاق باب القتل وسدّ هذه المفسدة حتى لا يستعجل كل وارث قتلَ مُورِّثه ليجد النص الشرعي أمامه: (ليس للقاتل شيء)[٤]، وفي رواية (ليس لقاتل ميراث)[٥]. وقد ألحق الفقهاء به (الموصَى له) إذا قتل الموصي لذات العلة ولاستعجال ما أوصى له به.

وقال ابن القيم: «قال الإمام أحمد: نهى رسول الله ﷺ عن بيع السلاح في الفتنة. ولا ريب أن هذا سدًا لذريعة الإعانة على المعصية ... ومن المعلوم أن هذا البيع يتضمن الإعانة على الإثم والعدوان، وفي معنى هذا كل بيع أو إجارة أو معاوضة تعين على معصية الله؛ كبيع السلاح للكفار والبغاة وقطاع الطريق، وبيع الرقيق لمن يفسق به أو يؤاجره لذلك... ومن هذا: عصر العنب لمن يتخذه خمرًا»[٦]. فمن الأهداف الكبيرة للشريعة الإسلامية: صيانة الدماء وتعظيم شأنها، ومن ثم سدَّت الشريعة كل ذريعة أو وسيلة من شأنها أنْ تصل بالضرر إليه.

ولا خلاف بين الفقهاء في أن بعض الوسائل غير المشروعة لذاتها قد تتحوَّل إلى مشروعة لغيرها إذا كان في ذلك حفظٌ للأرواح وحماية لها، ومثال ذلك: أكل الميتة محرم لذاته، لكن إن توقفت عليه حياة إنسان فقد يصير واجبًا، بل قد تكون وسيلة المحرم غير محرمة إذا أفضت إلى مصلحةٍ راجحةٍ؛ كالتوسُّل إلى فداء الأسارى المسلمين بدفع المال للكفار الذي هو محرم عليهم الانتفاع به[٧].

ومعنى ذلك أن الشريعة توازن بين المصالح والمفاسد؛ فتقدم هذه تارة وتلك أخرى في موازنة تنتهي بحماية الإنسان في نفسه وعرضه وعقله وماله وقبل ذلك دينه وعقيدته، يقول العز بن عبد السلام: «وربما كانت أسباب المصالح مفاسد فيؤمر بها أو تباح لا لكونها مفاسد بل لكونها مؤدية إلى المصالح؛ وذلك كقطع الأيدي المتآكلة حفظاً للأرواح»[٨]، ولذلك قتل الفاروق رضي الله عنه خمسة أو سبعة برجل واحد قتلوه قتْلَ غِيلة، وقال عمر: «لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعًا»[٩].

والصحابة وعامة الفقهاء اتفقوا على قتل الجماعة بالواحد وإنْ كان أصل القصاص يمنع ذلك؛ لئلا يكون عدم القصاص ذريعة إلى التعاون على سفك الدماء»[١٠]. قال ابن بطال: «ولو لم تقتل الجماعة بالواحد لأدى ذلك إلى رفع الحياة في القصاص الذي جعله الله حياة، ولم يشأ أحد أنْ يقتل أحدًا ثم لا يُقتل به إلا دعا مَن يقتله معه ليسقط عنه القتل، والنفس لا تتبعض في الإتلاف؛ بدليل أنه لا يقال: قاتل بعضِ نفس؛ لأن كل واحد قد حصل من جهته فعل ما يتعلق به خروج الروح عنده، وهذا لا يتبعض؛ لامتناع أن يكون بعض الروح خرج بفعل أحدهم وبعضها بفعل الباقين، فكان كل واحد منهم قاتل نفس»[١١].

وسدَ الإسلام الذريعة إلى شرب الخمر؛ وحيث كانت أم الخبائث أغلق الإسلام كل وسيلة تؤدي إلى

(١) الموافقات (٣٦٤/٢).
(٢) الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان، لابن نجيم، ص (٧٨).
(٣) ينظر: المرجع السابق، ص (٧٤).
(٤) أخرجه أبو داود (٤٥٦٤).
(٥) أخرجه ابن ماجه (٢٦٤٦).
(٦) إعلام الموقعين (١٥٢/٣).
(٧) ينظر: الفروق، للقرافي (٣٣/٢).
(٨) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١٤/١).
(٩) أخرجه مالك في الموطأ (٣٢٤٦).
(١٠) إعلام الموقعين (١٣٧/٣).
(١١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٥٢٦/٨-٥٢٧).

شربها وتعاطيها؛ فحرم شربها وبيعها وتصنيعها واستيرادها وتصديرها وحملها والمتاجرة فيها (لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه)[١]، وفي رواية أنس ﷺ: (وآكل ثمنها والمشتري لها والمشترى له)[٢]، كأن الباب أمام تناولها محكم الإغلاق؛ بل إنّ الفقهاء لم يبيحوا التداوي بها، وعن علقمة بن وائل الحضرمي عن أبيه أنّ رجلاً يقال له طارق بن سويد سأل النبي ﷺ عن الخمر (فنهاه أو كره أن يصنعها)، فقال: «إنما أصنعها للدواء» فقال النبي ﷺ: (إنه ليس بدواء، ولكنه داء)[٣].

ويترتب على ذلك: منع تصديرها واستيرادها والترخيص لها، مع سن قوانين تشريعية لتجريمها بالكلية؛ لأنّ في القيام بذلك سدًا للذريعة وحماية للمصالح الكلية المعتبرة والتي منها المحافظة على العقل والذي ميز الآدمي به على غيره، بل والمحافظة على نسيج المجتمع من وقوع العداوة والبغضاء بسببها.

> **لمّا حرّم الإسلام الخمر سدّ كل وسيلة تؤدي إلى شربها وتعاطيها، فحرم شربها وبيعها وتصنيعها واستيرادها وتصديرها وحملها والمتاجرة فيها، بل وحتى التداوي بها**

ضوابط العمل بقاعدة سدّ الذرائع:

ينبغي أن يكون سدّ الذرائع في إطار القواعد العامة الكلية والمقاصد الضرورية للشريعة وفق ضوابط وشروط شرعية، ومن ذلك:

أولاً- ألا تعارض النص الشرعي:

مثل قول البعض بالنهي عن صوم ستة أيام من شوال سدًا لذريعة ظن البعض إلحاقها برمضان؛ لأن ذلك يعارض الحديث: (من صام رمضان ثم أتبعه ستًا من شوال كان كصيام الدهر)[٤].

ثانيًا- ألا تعارض المقاصد الشرعية المعتبرة:

ومنها رفع الحرج، فلا نسد ذريعة أو نفتحها لنضيق بها على الناس، وكما قال العز بن عبد السلام: «أن الوسائل تسقط بسقوط المقاصد»[٥].

ثالثًا- عدم تعميم الفتوى الناتجة عن العمل بالقاعدة:

فلا تنقل فتوى سد الذريعة لغير الزمان والمكان التي عمل بها فيهما؛ وذلك بسبب تغير العادات والأحوال بين الناس، وهو ما أكده الإمام القرافي بقوله: «إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك؛ لا تُجْره على عُرف بلدك، واسأله عن عُرف بلده وأَجْرِه عليه»[٦].

من تطبيقات القاعدة في السياسة الشرعية[٧]:

لهذه القاعدة تطبيقات عديدة في السياسة الشرعية، وكثير منها يساعدنا على التعامل مع الواقع الحالي وتلافي الكثير من الإشكالات المعاصرة، ومنها على سبيل المثال:

١. تولية أهل الكفاءة:

الدولة لا تقوم ولا تسير أمورها إلا بالولايات العامة وبالوظائف التي تقوم عليها مصالح العباد، لكن هذه الوظائف لا بد أن تسند إلى أهل الكفاءة القادرين على إنفاذ المصالح المنوطة بها، وهنا نرى أن الصحابي الجليل أبا ذر طلب من النبي ﷺ تقليده إحدى هذه الولايات، فقال ﷺ: «ألا تستعملني؟» فضرب النبي ﷺ بيده على منكبه ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها)[٨].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٧٤).
(٢) أخرجه الترمذي (١٢٩٥).
(٣) أخرجه مسلم (١٩٨٤).
(٤) أخرجه مسلم (١١٦٤).
(٥) قواعد الأحكام (١٢٨/١).
(٦) الفروق (٣٢٢/١).
(٧) هذه التطبيقات مستفادة بتصرف من دراسة بعنوان «سد الذرائع وتطبيقاته في الفقه السياسي» أعدها الباحث: صايل أحمد حسن أمارة، بكلية الشريعة/ قسم الفقه والتشريع - جامعة النجاح الوطنية/ نابلس - فلسطين، والبحث منشور على موقع الجامعة على شبكة الإنترنت.
(٨) أخرجه مسلم (١٨٢٥)، قال القرطبي: أي ضعيفًا عن القيام بما يتعين على الأمير من مراعاة مصالح رعيته الدنيوية والدينية، ووجه ضعفه عن ذلك أن الغالب عليه كان الزهد واحتقار الدنيا، ومن هذا حاله لا يعتني بمصالح الدنيا وأموالها اللّذَين بمراعاتهما تنتظم مصالح الدين ويتم أمره وقد كان أبو ذر أفرط في الزهد في الدنيا...»، المصدر: حاشية السيوطي على سنن النسائي (٦/ ٢٥٥).

فأبو ذر ﷺ لا ينقصه التقوى ولا تعوزه الأمانة، لكن هذه الأمور وحدها ليست كافية في الولايات العامة، وتولية مَن تنقصه الكفاءة ليس محرمًا لذاته، وإنما سدًا لذريعة التقصير في القيام بشؤون الوظيفة.

٢.نهي الولاة عن قَبول الهدايا:

مع اختلاط الولاة والعمّال بالناس وتقديمهم للخدمات التي يحتاجها الناس؛ قد تصلهم هدايا يعبر بها الناس عن شكرهم وامتنانهم، أو للتقرب منهم، أو لأي سبب آخر، وبالرغم من كون الهدية شيئًا مرغبًا به في الشريعة، ومدعاة للتحابِّ والتوادّ؛ إلا أنّ النبي ﷺ نهى عماله عن قبولها، وقال لابن اللُّتْبية الذي قال عند محاسبته على ما جمع من الصدقات: «هذا مالكم، وهذا هدية»: (فهلّا جلست في بيت أبيك وأمك، حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقًا)، ثم خطب الخطبة المعروفة التي قال فيها: (والله لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحدًا منكم لقي الله يحمل بعيرًا له رُغاء، أو بقرةً لها خُوار، أو شاةً تَيعَر)[1]. فنهي العمال عن قبول الهدية شُرع سدًا لذريعة قبول الرشوة، واستغلال السلطة التي تمنحها لهم مراكزهم الوظيفية.

> **من تطبيقات القاعدة في السياسة الشرعية: ترك تولية مَن تنقصه الكفاءة مع تقاه وورعه؛ منعًا من الإخلال بشؤون الولاية. ونهي الولاة عن قَبول الهدايا سدًا لذريعة قبول الرشوة، واستغلال السلطة التي تمنحها لهم مراكزهم الوظيفية**

٣. تجاوز معاقبة بعض المستحقين:

الأصل في المجتمع الإسلامي التماسك والترابط ووحدة الصف، لكن عند ظهور الحق واستعلاء أهله يخفت صوت أهل الباطل في العلن، ويظهرون ما لا يبطنون، وهنا يطل مجتمع النفاق الذي يشعر الناس بوجوده وبتحركاته، وقد يبرز له رموز يقولون قولاً لا تصدقه أفعالهم، وقد ترصد لهم إساءات ظاهرة، وهنا ينبغي على الحاكم أن يوازن بين إيقاع العقوبة عليهم أو تركهم وتحمل سلوكهم المؤذي؛ لأن عقوبتهم لن تكون مفهومة لمن لا يعرفون تفاصيل إساءاتهم، ولربما يكون في معاقبتهم إثارة لفئة من المجتمع تأخذهم الحمية والعصبية.

وهكذا فعل النبي ﷺ مع رأس النفاق عبد الله بن أُبيّ بن سلول، الذي قال: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبيَ ﷺ، فقام عمر فقال: «دعني أضرب عنق هذا المنافق»، فقال النبي ﷺ: (دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه)[2]. فقد امتنع النبي ﷺ عن عقاب زعيم المنافقين رغم استحقاقه العقوبة، وبالرغم من وجود مصلحة في تخليص المجتمع من هذه الفئة التي تشكل خطورة على النظام السياسي؛ سدًا لذريعة مفسدة أكبر ستترتب على هذه العقوبة، وهي تنفير الناس عن الدخول في الإسلام لأنّ محمدًا ﷺ يقتل أصحابه.

> **إذا ظهر الحق واستعلى أهله يطل مجتمع النفاق، وقد ترصد لهم إساءات ظاهرة، وهنا ينبغي على الحاكم أن يوازن بين إيقاع العقوبة عليهم أو تركهم وتحمل سلوكهم المؤذي؛ لأن عقوبتهم لن تكون مفهومة لمن لا يعرفون تفاصيل إساءاتهم، ولربما يكون في معاقبتهم إثارة لفئة من المجتمع تأخذهم الحمية والعصبية**

٤. التدرج في إحداث التغيير:

يتسم الفقه الإسلامي بالواقعية، ومما يتفرع عن هذه الخصيصة: عدم تجاوز الطبيعة البشرية، وما جبل عليه الإنسان من طباع، بل تطويع هذه الطبيعة لتنسجم مع التكاليف الشرعية، ولأن الإنسان يألف السلوك الذي يعتاد عليه، فيغدو جزءًا من طبيعته، ويكون له دور في تشكيل مفاهيمه عن الواقع، بغض النظر عن حسن هذا السلوك أو قبحه؛ فإن نزعه مما اعتاد عليه ليس بالأمر السهل، لذلك اعتمدت الشريعة على التدرج في التغيير الاجتماعي، ومما جاء عن عائشة ﷺ أنها قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا

(١) أخرجه البخاري (٦٩٧٩) ومسلم (١٨٣٢).
(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥) ومسلم (٢٥٨٤).

تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا»[1].

لقد وعى الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز هذه الحقيقة في سياسة أمور الدولة، فقد روي أن ابنه عبدالملك قال له: «ما لك لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق، قال له عمر: لا تعجل يا بني، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة: وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيدفعوه جملة، ويكون مِن ذا فتنة»[2].

لا شك أن من أهم مقاصد النظام السياسي في الإسلام: العمل على تغيير واقع الأمة تغييرًا جذريًا بحيث ينسجم مع التنزيل، إلا أن التغيير السريع في كل مرافق الحياة قد يولد حالة من الاغتراب عند الناس، فيشعرون بنوع من النفور من هذا النظام، وقد يولد حالة من الرفض، وسدًا لذريعة هذه الحالة التي تشكل خطرًا على السلم الاجتماعي؛ يأتي دور التدرج في التغيير، بما لا يتناقض مع قطعيات الشريعة.

> **التغيير السريع في كل مرافق الحياة بعد التمكين قد يولد حالة من الاغتراب عند الناس، فيشعرون بنوع من النفور من هذا النظام، وقد يولد حالة من الرفض، وسدًا لذريعة هذه الحالة التي تشكل خطرًا على السلم الاجتماعي يأتي دور التدرج في التغيير، بما لا يتناقض مع قطعيات الشريعة**

كثرة أمثلة قاعدة سد الذرائع في السياسة الشرعية:

الأمثلة الآنفة ليست إلا غيضًا من فيض، ولو اتسع المقام فالأمثلة والتطبيقات كثيرة، ولا يكاد يخلو موقف فقهي في السياسة الشرعية من تطبيق قاعدة سد الذرائع، ومنها على سبيل العد لا الحصر: (تعطيل الحدود في أرض الحرب، وتعطيل سهم المؤلفة قلوبهم، ومسألة التترس، ونهي الناس عن اتخاذ حمى لرعي مواشيهم، والتشديد على أقارب الحاكم، والامتناع عن توزيع الأراضي المفتوحة على الفاتحين، وجواز إمامة المفضول والمتغلب، والتضييق على الخروج على الحاكم)، وغيرها.

> **قاعدة سد الذرائع مثال واضح على مرونة الشريعة وعدم جمودها على قوالب واختيارات جامدة، ودليل على صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، فحتى الأحكام التي دل عليها الشارع بالأدلة الواضحة قد يفضي الاجتهاد والنظر السليم في الفقه وأدلته إلى إيقاف العمل بها لوجود مفسدة متحققة في زمان من الأزمنة أو مصر من الأمصار**

أخيرًا:

هذه القاعدة مثال واضح على مرونة الشريعة وعدم جمودها على قوالب واختيارات جامدة، ودليل على صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، فحتى الأحكام التي دل عليها الشارع بالأدلة الواضحة قد يفضي الاجتهاد والنظر السليم في الفقه وأدلته إلى إيقاف العمل بها لوجود مفسدة متحققة في زمان من الأزمنة أو مصر من الأمصار.

وبها عمل المسلمون على مر العصور وسعد الناس بها وبغيرها من القواعد في ظل الشريعة قرونًا متطاولة وعصورًا متتابعة، ولا شك أن أهل النظر في هذه القاعدة وتطبيقاتها هم أهل الاجتهاد والاستنباط الذين شهد لهم العلماء بعلو كعبهم في العلم والفتوى.

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩٣).
(٢) الموافقات (١٤٨/٢).

تزكية

تربية النفوس بالغاية والأهداف

أ. رأفت صلاح الدين (*)

أوّل طريق الفوز وتحقيق النجاة في الدنيا والآخرة هو وضوح الغاية وتحديد الأهداف بناءً عليها. وبما أن غاية المسلم هي السعي لإرضاء الله تعالى والفوز بالجنة، فإنه يفعل الطاعات ويترك المعاصي ويسعى في حاجات الناس ويجبر خاطرهم؛ ابتغاء رضوان الله والفوز بالجنّة. لكن نجد أن هذا الأمر تضاءل، بل اختفى في بعض من الأحيان، وأصبح بعض المسلمين بلا غاية أو هدف؛ الأمر الذي أدّى إلى وقوع الخلل على مستوى الفرد والمجتمع على حدّ سواء.

مدخل:

موضوع التربية وبناء الشخصية من الموضوعات التي شغلت حيّزًا كبيرًا في كتابات كثير من المفكّرين والمنظّرين المسلمين المعاصرين، وستبقى الكتابة مستمرةً حتى تتحوّل هذه الأفكار إلى واقع ملموس في حياة الناس؛ وذلك لأنّ التربية من أهمّ القضايا التي يحتاجها المسلمون في كلّ العصور.

ومن ناحية أخرى فإنّ ساحتنا الإسلامية تفتقد إلى مناهج تربوية شاملة وواقعية قابلة للتطبيق تنتج لنا «الفرد الأمّة»، الذي أخرجته الدعوة النبوية الراشدة أوّل أمرها، والذي يحتاجه المسلمون بإلحاح هذه الأيام بعد أن وصلنا إلى مرحلة «القصعة المستباحة» التي تداعت عليها الأمم، مصداقًا لكلام النبي ﷺ.

والأكثر أهمّية أنَّ البناء التربوي هو السبيل الوحيد لتحقيق الهدف الذي من أجله خلقنا الله تعالى، وهو تحقيق العبودية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فهي التي ترتقي بنا في مدارج العبودية لنصل إلى دار السعادة الأخروية.

لقد كانت دعوة النبي ﷺ قائمة على التربية والتزكية وإخراج النماذج القرآنية الفذّة، والتي حوّلت الإسلام إلى واقع ملموس في حياتهم وسلوكياتهم ومعاملاتهم.

(*) صحفي وباحث مصري، مدير تحرير مجلة قراءات إفريقية سابقًا.

والبناء التربوي الذي مارسه النبي ﷺ مع صحابته رضوان الله عليهم أجمعين كان بناءً شاملاً لم يقتصر على جانب دون آخر، فربّاهم ﷺ على أن يكونوا فقهاءَ وعُبَادًا وفي الوقت نفسه فرسانًا وقادة وقضاة ودعاة للإسلام، وحثّهم على تطوير وترقية أنفسهم وإمكاناتهم، فكانت تربية راشدة جامعة.

ثم فهم صحابتُه وأتباعُهم هذا الدرس فلم يحصروا أنفسهم في إطار معين، فخرج منهم الفقيه العابد المجاهد وهو نفسه القاضي الداعي للإسلام، وهكذا.

لذا ينبغي علينا بيان أهمّ معالم المنهج النبوي في التربية والبناء، الذي أخرج خير أمة أخرجت للناس، وهو: توضيح الغاية التي على سالك الطريق أن يقصدها.

فأول طريق النجاة في الدنيا والآخرة هو توضيح الغاية وتحديد أهدافنا بناءً عليها.

التربية بالغاية:

الغاية هي منتهى أهداف الإنسان في الحياة، أو الهدف الأسمى الذي يجدُّ الإنسان لتحقيقه.

والغاية تختلف عن الهدف في كونها غير محدّدة بزمن، وليس لها نهاية، وبعيدة المنال، فيكدُّ الإنسان ويجهد نفسه ليصل إليها فلا ينتهي، لذا يطلق عليها أحيانًا: الأهداف بعيدة المدى.

وغاية المسلم: «السعي لإرضاء الله تعالى، والفوز بالجنّة» أي العمل للآخرة والسعي في طلبها، لتحقيق الفوز والنجاة في هذه الحياة الدنيا بنيل رضى الله تعالى.

هكذا ربّى النبي ﷺ صحابته، وهذا واضح جلي في سيرته مع صحابته، وهذا ديدن المربّين والمصلحين في كلّ زمان، حيث يربّون أتباعهم على إرادة الآخرة والسعي لها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إنَّ سلعة الله غالية، ألا إنَّ سلعة الله الجنة)[1].

وعن أنس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: (اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة)[2].

> **الغاية تختلف عن الهدف في كونها غير محدّدة بزمن، وليس لها نهاية، وبعيدة المنال، فيكدُّ الإنسان ويجهد نفسه ليصل إليها فلا ينتهي، لذا يُطلق عليها أحيانًا: الأهداف بعيدة المدى**

وربّى القرآن أتباعه على ذلك بعدة أساليب:

أ. الدعوة لطلب الآخرة والسعي لها:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، وقال أيضًا: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ب. ربط جميع العبادات بالآخرة:

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦]. وقال جل في علاه: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

ج. بيان مآل مريدي الآخرة ومخالفيهم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

أثر الغاية في حياة المسلم:

ويظهر أثر وضوح الغاية في حياة المسلمين في حرص المسلم على إرضاء الله تعالى، وفي تقواه وخشيته وورعه وإخلاصه، واستقامته على طاعة الله وتوحيده، والتوجّه إلى الله تعالى بكلّ كيانه وأعماله وتصوّراته وأفكاره.

أي: يتحوّل المسلم إلى رجل الآخرة، يسعى إليها ويعمل لها، ويترك كلّ العلائق التي تشغله عنها.

فإذا نظرنا إلى واقعنا اليوم نلحظ عدم وضوح هذه الغاية في حياتنا، وفي سلوكياتنا، وفي أخلاقنا، وفي برامجنا العلمية والعملية والتربوية.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠)، أدلج: من الدُّلجة، وهي سير الليل.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٩٦) ومسلم (١٨٠٤)، وكان ذلك أثناء حفر الخندق في غزوة الأحزاب.

لقد تحولت الآخرة في أحسن أحوالها إلى مادة علمية نظرية تدرّس مثلها مثل أيّ علم، تحوّلت إلى علم مجرّد عن الواقع وعن السلوك والأخلاق، وتحوّلت إلى مواعظ جافّة يتشدّق بها الخطباء على منابرهم، لا تغيّر من واقعنا شيئًا.

يحفظ المسلم كلّ الآيات والأحاديث التي تتكلّم عن موضوع الآخرة، ويردّدها ليل نهار، ومع ذلك تفشت أخلاق الجاهلية في صفوف أشدّ الناس محاربة للجاهلية، فضلاً عن غيرهم.

والسبب في ذلك الخطأ المنهجي يكمن حيث لا يتمّ الربط في حسّ المسلم بين عمله وإرادة الآخرة؛ فالتربية الصحيحة هي تربيته على غاية واضحة محدّدة، فحياة الإنسان كلّها لله، يبتغي بها رضوان الله والفوز بجنّته، لذا هو يصلي ويصوم ويغضّ بصره ويحفظ فرجه، ويسعى في حاجة الناس، ويجبر خاطرهم؛ يبتغي بذلك رضوان الله والفوز بالجنّة.

هذا الأمر تضاءل، بل اختفى في كثير من الأحيان، وأصبح كثير من المسلمين بلا غاية أو هدف، وإذا سلك طريق التديّن فقد يسلكه لأنّه أحبَّ الشباب المتديّن، أو أصابه الملل من حياته السابقة، أو من أصدقائه، أو ظنًا منه أنّ التديّن يجلب له السعة في المال أو الراحة النفسية، أو غيرها من الأسباب، وهذه النماذج المشوهّة تربويًا إمّا أن تترك التمسّك بدين الله مع أول ابتلاء، أو أنّها تبقى محتفظة بأخلاقها وسلوكياتها ومعاملاتها الجاهلية، فتسيء للإسلام والمسلمين.

ومن آثار عدم وضوح الغاية والهدف: التخبّط الذي نعاني منه في العمل الإسلامي، والصراعات المريرة بين فصائله وتياراته المختلفة، وبين أتباع الجماعة الواحدة.

ومثله التخبّط في المناهج والأفكار، فالمسلم الذي يسعى للآخرة يتحلّى دائمًا بالإخلاص والتجرّد والربّانية ونبذ التعصّب والحبّ لكلّ مَن يعمل لله، ويسير في هذا الطريق؛ لأنّ الغاية واحدة والهدف واحد، فإذا غاب أو انعدم وضوح الغاية والهدف؛ انعدم الأثر المترتّب عليهما، وهذا هو سبب التخبّط.

من آثار عدم وضوح الغاية والهدف: التخبّط الذي نعاني منه في العمل الإسلامي، والصراعات المريرة بين فصائله وتيّاراته المختلفة، وبين أتباع الجماعة الواحدة

التربية بالهدف:

وهو ما يقصد إليه الإنسان، ويجعله غرضًا يسعى للوصول إليه؛ لتحقيق غايته في الحياة من إرضاء الله تعالى والفوز بالجنّة.

ويمكن تحديد أهم أهداف المسلم في الحياة في ما يأتي:

أ. تعبيد النفس لله تعالى:

أي تحقيق الهدف الذي من أجله خلقنا الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ومقتضاه أن يتحوّل الإنسان إلى عبدٍ مستسلمٍ لله تعالى يسمع ويطيع فيما أحب أو كره، ولا يكون ذلك إلا بفعل ما أمر به الله ورسوله ﷺ، واجتناب ما نهى عنه الله ورسوله ﷺ.

وتحقيق العبودية هو الهدف من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وهو الهدف من أيّ منهج سماوي: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وفي الحديث عن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت رِدْفَ رسول الله ﷺ على حمارٍ يقال له: عُفَير، فقال: (يا معاذ، تدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله عز وجل أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا)، فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: (لا تبشرهم فيَتَّكِلوا)[1].

ب. تعبيد الناس لله تعالى:

فلا يصلح أن يكون الإنسان عابدًا في نفسه، بل لا بد من تعبيد الناس لله تعالى حتى يستقيم أمر هذا الكون، ووسائل تعبيد الناس لله تعالى حدَّدها الله في قرآنه، وبيّنها النبي ﷺ في سيرته، وهي: الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦) ومسلم (٣٠).

أهم أساليب القرآن في تربية المؤمنين بالغاية

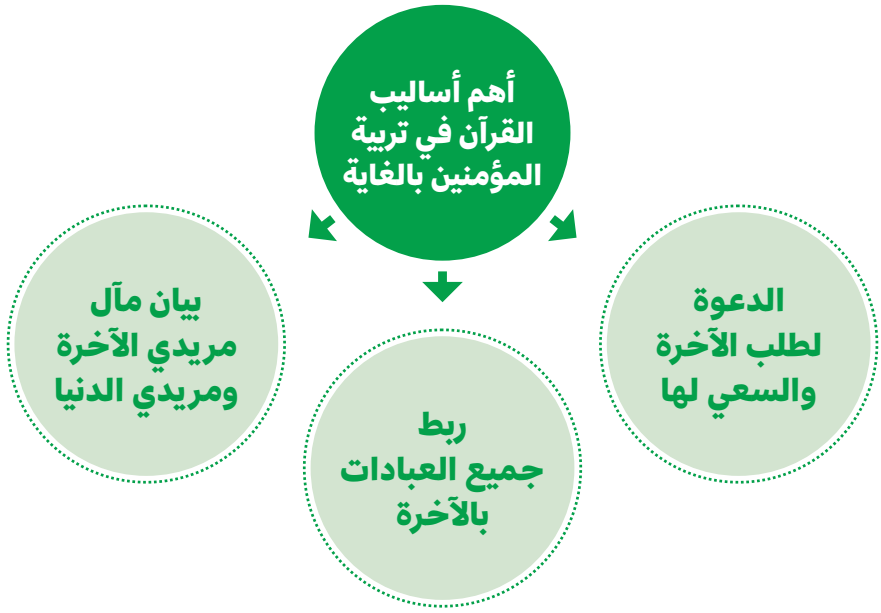

في سبيل الله لإزالة العوائق التي تحول بين الناس وبين الإسلام.

والآيات والأحاديث التي تدعو إلى تعبيد الناس لربّهم من الكثرة بمكان، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وفي الحديث عن أبي هُريرةَ ﷺ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا يَنقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا يَنقص ذلك من آثامهم شيئًا)[١].

وعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (نضَّر الله امرأً سمع منا شيئًا فبلغه كما سمع، فرب مبلَّغ أوعى من سامع)[٢].

ج. **العمل على إقامة شرع الله في الأرض والالتزام بأحكامه:**

الخطوة التالية بعد تعبيد النفس لله تعالى وتعبيد الناس له: أن يكون هناك مجتمع يطبَّق فيه شرع الله تعالى، ويتمّ فيه تعليم الناس دين الإسلام وأحكامه وشرائعه.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

وفي الحديث عن العرباض بن سارية ﷺ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: (أوصيكم

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٧).

بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن عبدًا حبشيًا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)[1].

فالآيات والأحاديث واضحة في ضرورة الالتزام بشرع الله وأحكامه، وإقامة المجتمع المسلم وفق ذلك؛ حتى نعبد الله تعالى حقّ عبادته، وبذلك نحقّق أهداف المنهج النبوي في التربية، وهكذا ينبغي أن تكون قضيتنا وهدفنا.

تحقيق العبودية هو الهدف من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وهو الهدف من أيّ منهج سماوي

أثر التربية بالأهداف:

يمكن رؤية أثر التربية بالأهداف من خلال المنهج النبوي متجسّدة في قصّة ربعيّ بن عامر، فخلال فتح المسلمين لفارس أرسل «رستم فرخزاد» قائد الفرس يطلب من المسلمين وفدًا للتفاوض معه؛ وذلك لرغبته في الصلح، فذهب ربعيّ بن عامر ليقابل رستم، مع أنّه لم يكن من قادة الجيش الإسلامي.

«دخل ربعيّ ﷺ على رستم في خيمته وقد زينوها بالذهب والحرير. دخل بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة.

فقالوا له: ما جاء بكم؟

فقال: الله ابتعثنا لنخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسَلَنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمَن قَبِل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومَن أبى قاتلناه أبدًا حتى نُفضي إلى موعود الله.

قالوا: وما موعود الله؟

قال: الجنّة لمن مات على قتال مَن أَبَى، والظَفَر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخّروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟

قال: نعم، كم أحبَّ إليكم؟ يومًا أو يومين؟

قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا رؤساء قومنا.

فقال: ما سَنَّ لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأَجَل.

فقال: أسيدهم أنت؟

قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يُجير أدناهم على أعلاهم.

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قطّ أعزّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟

فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، تدع دينك إلى هذا الكلب! أما ترى إلى ثيابه؟

فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إنّ العرب يستخفّون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب.

ثم بعثوا يطلبون في اليوم الثاني رجلاً، فبعث إليهم حذيفة بن محصن فتكلّم نحو ما قال ربعيّ»[2].

انظر أثر تربية النبي ﷺ في شخصيّة الصحابي الجليل، وهو ليس من قادة الصحابة ولا السابقين ولا المقدّمين فيهم، لاحظ معي الجُمَل التي تُبرهن على وضوح الغاية وبروز الهدف عنده وعند بقيّة الصحابة رضوان الله عليهم:

١. ثقته وقوّته وعدم تأثّره بالزينة ومتاع الدنيا التي يرفل فيها هؤلاء الكفار، بل تعمّد أن يدوس عليها بحصانه، وأن يمزّقها بسيفه.

٢. قوله: «الله ابتعثنا لنخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمَن قَبِل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومَن أَبَى قاتلناه أبدًا حتى نُفضي إلى موعود الله» يدلّ على وضوح الرؤية عند الجميع قائدًا كان أو جنديًا.

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧).
(٢) البداية والنهاية، لابن كثير (٦٢٢/٩-٦٢٣) بتصرف يسير.

٣. قوله عندما سأله عن وعد الله لكم: «الجنّة لمن مات على قتال مَن أَبَى، والظَفَر لمن بقي» يدل على وضوح الغاية.

٤. تأثّر رستم بشخصيّة ربعيّ وكلامه، حتى إنّه صرّح بذلك أمام مستشاريه، دليل على أنّ استحضار الهدف الواضح والكلمات المختصرة تؤثّر في إيصال الرسالة أيّما تأثير.

كذلك تجسّدت هذه التربية ووضوح الأهداف التربوية فيها واقعًا عمليًا في قصة المغيرة بن شعبة مع رستم:

فقد ذكر ابن كثير: أنّه لما تواجه الجيشان (يقصد جيش الفرس مع جيش المسلمين في معركة القادسية) بعث رستم إلى سعد بن أبي وقاص (قائد جيش المسلمين) أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه، فبعث إليه المغيرة بن شعبة ﷺ، فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنّكم جيراننا، وكنّا نحسن إليكم ونكفّ الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا.

فقال له المغيرة: إنّا ليس طلبنا الدنيا، وإنّما همّنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له: إنّي قد سلّطت هذه الطائفة على مَن لم يدِن بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعلُ لهم الغلبة ما داموا مقرّين به، وهو دين الحقّ، لا يرغب عنه أحد إلا ذلَّ، ولا يعتصم به إلا عزَّ.

فقال له رستم: فما هو؟

فقال: أمّا عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله.

فقال: ما أحسنَ هذا! وأيّ شيء أيضًا؟

قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله.

قال: وحسنٌ أيضًا، وأيّ شيء أيضًا؟

قال: والناس بنو آدم وحواء فهم إخوة لأب وأم.

وقال: وحسنٌ أيضًا[1].

انظر قول المغيرة: إنّا ليس طلبنا الدنيا، وإنّما همّنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له: إنّي قد سلطت هذه الطائفة على مَن لم يدِن بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعَلُ لهم الغلبة ما داموا مقرّين به، وهو دين الحقّ، لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ، ولا يعتصم به إلا عزّ.

وقول المغيرة أيضًا: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، انظر معي هل رأيتم وضوحًا أكثر من ذلك؟

ختامًا:

بالمقارنة مع مجتمع النبوّة والقرون المفضّلة يتضح أثر تربيتهم على هذه الغاية وتلك الأهداف في حياتهم وسلوكياتهم وواقعهم، وما حصّله المسلمون من الراحة النفسية والطمأنينة، وكذلك خضوع الأرض لهم وتغلّبهم على أعدائهم رغم فارق القوة عدّةً وعتادًا.

كذلك يبرز أثر وضوح الغاية والهدف في حياة المسلم من وجود النموذج المسلم الملتزم بدين الله، والذي يسعى والآخرة نصب عينيه، ويسعى لتعبيد نفسه لله ثم تعبيد الناس لله، ثم يكون له دور في إقامة شرع الله في الأرض.

لذا ما أحوجنا لتحرّي منهجهم واتّباع طريقتهم واقتفاء أثرهم، وذلك بالعمل على إقامة المجتمع المسلم الذي تتضح في حياة أفراده غايتهم وأهدافهم.

بالمقارنة مع مجتمع النبوة والقرون المفضلة يتضح أثر تربيتهم على هذه الغاية وتلك الأهداف في حياتهم وسلوكياتهم وواقعهم، وما حصله المسلمون من الراحة النفسية والطمأنينة، وكذلك خضوع الأرض لهم وتغلبهم على أعدائهم رغم فارق القوة عدة وعتادًا

(١) البداية والنهاية (٦٢١/٩).

قضايا معاصرة

الإسلام والتنمية المستدامة: مقومات البناء الإنساني للمجتمعات

د. صبحي رمضان فرج سعد (*)

إذا كانت التنمية المستدامة في المنظور الغربي قد جعلت جلّ اهتمامها بالجانب المادي، فإنها في الإسلام تتميز بالسعة والتوازن والاستدامة؛ فالرؤية التنموية في الإسلام تنبعث من قضية الاستخلاف وفلسفته في العلاقة بين الإنسان والكون ومالكهما رب العالمين، وهو مفهوم يجمع بين التنمية الروحية والمادية، ويُعلي من شأن النفس الإنسانية ويضعها موضع التكريم اللائق بها.

مقدمة:

التنمية المستدامة في التصور الإسلامي تسعى إلى بناء الإنسان ماديًا ونفسيًا وعقليًا ودينيًا؛ وفقًا لمتطلبات مادية ومعايير وقيم أخلاقية وإنسانية؛ لتحقيق مهمته في الاستخلاف وعمارة الأرض وتنميتها، وهي معايير وقيم يرسخها الدين ويؤصلها وفق ضوابط رشيدة ورؤية هادفة، ووازع يقوم على الوعي ورقابة الضمير، وباعث من طلب الثواب الدنيوي والأخروي.

مفهوم التنمية المستدامة:

تتضمن التنمية المستدامة أربعة عناصر أساسية:

- **الأول:** أنها عملية متعددة الأبعاد تقوم على التخطيط والتنسيق بين خطط التنمية الشاملة بكافة أبعادها البيئية والاجتماعية والاقتصادية.
- **الثاني:** الاستغلال الأمثل للموارد.
- **الثالث:** توفير حق الأجيال الحاضرة واللاحقة من الموارد، والارتقاء بالجوانب الكمية والنوعية للمادة والبشر.
- **الرابع:** إعادة توجيه التقنيات المعاصرة بما يحقق ما يمكن أن نطلق عليه التقنيات الحميدة أو الـمُرَشّدة.

(*) أستاذ جغرافية البيئة - كلية الآداب - جامعة المنوفية بمصر.

وقد أعلنت الأمم المتحدة أهداف التنمية المستدامة (SDGs) في سبتمبر من عام ٢٠١٥م للفترة بين (٢٠١٥ -٢٠٣٠م)، فيما يعرف رسميًا باسم «جدول أعمال ٢٠٣٠م للتنمية المستدامة»، وتتمثل هذه الأهداف في سبعة عشر هدفًا. وفي يناير من عام ٢٠١٦م أُدرجت هذه الأهداف في خطة التنمية المستدامة للأمم المتحدة، وتغطي هذه الأهداف مجموعة واسعة من قضايا الحياة البيئية والاجتماعية والاقتصادية مثل: (الفقر، الجوع، الصحة، التعليم، تغير المناخ، المساواة بين الجنسين، المياه، الصرف الصحي، الطاقة، البيئة، العدالة الاجتماعية). وتترابط هذه الأهداف العامة (الغايات) فيما بينها، فيؤثر تحقيق كل منها على بقيتها، كما أنّ لكل من الأهداف العامة مجموعة من الأهداف التفصيلية الخاصة بها، تمثل في مجموعها (١٦٩) هدفًا تفصيليًا.

والتنمية المستدامة لعموم هذا التوجه تُعد مبدأ إسلاميًا أصيلاً، بل تدخل في مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورياتها الخمس: (حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال). وقدمت الشريعة الإسلامية في هذا الصدد إطارًا شاملاً ومنهجًا متكاملاً منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، تخطت فيه حد التنظير إلى الواقعية، سخرت فيه المادة، وأعلت من القيم الروحية.

ركائز وتدابير التنمية المستدامة في القرآن والسنّة:

تقوم الرؤية الإسلامية في معالجة قضايا التنمية المستدامة على خمس مقومات أو ركائز رئيسة، ينضوي تحت كل منها مجموعة من التدابير (آليات التنفيذ)، تتفرّد الشريعة الإسلامية في اثنتين منها (الركائز الإيمانية)، وتشترك في الركائز الثلاث الأخرى (الركائز المادية) مع ما يُطرح وفق خطة الأمم المتحدة للتنمية المستدامة، ولكن وفق الرؤية الإسلامية، التي تتسم بالعمق والشمول.

أولًا: الركائز الإيمانية وتدابيرها:

تميز المنهج الإسلامي إلى جانب تكامليته وشموليته بأنه لم يؤسس على المؤشرات المادية المجرّدة فحسب، وإنما تجاوزها إلى أبعاد روحية ذات منطلقات إيمانية.

(أ) التقوى والعمل الصالح:

إن الحياة الطيبة في المفهوم القرآني حياة تقوم على الاتصال بالله، والثّقة به، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه، وفيها الصحَّة والهدوء، والرِّضا والبركة، والسكَن والمودة، وليس المال إلَّا عنصرًا واحدًا ضمن هذه المنظومة المتكاملة. ولكي يحيا المرء هذه الحياة فإن الإيمان والصلة بالله ضرورة لتحقيقها جنبًا إلى جنب مع العمل المادي النافع، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. ففي غير موضع من القرآن الكريم تُبسط الأرزاق وتتسع المعايش -وهي من المؤشرات المادية للتنمية- ببركة الإيمان والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وعن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)[1].

ومما يزيد العطاء ويباركه: شكر المنعم تبارك وتعالى؛ فبالشكر تدوم النعم، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وكفران النعم وعدم أداء واجب الشكر فيها يمحقها ويعجل بزوالها، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

والإشباع الروحي سبب وأساس ثابت لتحقيق التنمية، والجوانب المادية ليست إلا وسائل تتغير بتغير الأزمان، وقد تم تقديم المتغير على الثابت في هذا الزمن، فالتنمية بالمفهوم الوجداني لا مكان لها في مؤشرات وأدلة التنمية بالمفهوم المعاصر الذي تغلب عليه الصبغة المادية البحتة. وكان من نتائج هذا المسار: تسجيل العديد من البلدان المتقدمة لأعلى معدلات الانتحار، وهي تقع في صدارة ترتيب مؤشرات التنمية في العالم، فقد أشارت إحصاءات عام ٢٠٢١/٢٠٢٢م إلى تسجيل السويد -على سبيل المثال- أعلى معدلات انتحار بين دول الشمال الأوروبي، وهي الدولة الأولى في العالم في دليل التنمية البشرية بمؤشراته المادية المعاصرة.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤٣٨).

الإشباع الروحي سبب وأساس ثابت لتحقيق التنمية، والجوانب المادية ليست إلا وسائل تتغير بتغير الأزمان، وقد تم تقديم المتغير على الثابت في هذا الزمن، فالتنمية بالمفهوم الوجداني لا مكان لها في مؤشرات وأدلة التنمية بالمفهوم المعاصر الذي تغلب عليه الصبغة المادية البحتة

(ب) جريان الأجر (استدامة المثوبة):

مما تتفرد به الشريعة الإسلامية: حثّها على الاستثمار عبر بناء ثروات إنتاجية، تنظر بعين الاعتبار للأجيال القادمة، وتقوم على الخلفية الدينية؛ بدوام نفعها وجريان أجرها وثوابها، ومنها:

(١) الصدقة الجارية:

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[١]، فجعلت الشريعة جريان الأجر للميت متعلقًا بمنفعة الأجيال القادمة، والجريان هنا بمعنى الاستدامة.

كما جاء عن جابر ﷺ مرفوعًا أن النبي ﷺ قال: (ما من مسلم يغرس غرسًا، إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يَرْزؤه أحد إلا كان له صدقة)[٢]، وفي رواية: (إلى يوم القيامة). وفي هذه الأحاديث: فضيلة الغرس والزرع، وأن أجر فاعل ذلك مستمر، ما دام الغرس أو الزرع، وما تولد منه إلى يوم القيامة.

(٢) الوقف الخيري:

من خصائص الوقف: البقاء والاستمرارية، أي استمرارية الانتفاع بالوقف في أوجه الخير والبر طيلة أزمنة عديدة، واستمرارية الأجر والثواب.

وشرع الإسلام الأوقاف كإحدى صيغ التكافل الاجتماعي التي ترفد مفهوم التنمية المستدامة، وقد عرف المجتمع الإسلامي نظام الوقف منذ عهد النبي ﷺ، حيث كان يُمثل قاعدة اقتصادية ومعنوية لبناء مؤسسات المجتمع المدني ودعمها في كافة المجالات؛ حيث يتضمن ذراعًا استثمارية (تحقق أهدافًا استثمارية) وذراعًا أخرى خيرية (تحقق أهدافًا مجتمعية تكافلية) تعملان سويًا بتنسيق وتكامل، كما تنظر بعين الاعتبار للأجيال القادمة.

شرع الإسلام الأوقاف كإحدى صيغ التكافل الاجتماعي التي ترفد مفهوم التنمية المستدامة

ثانيًا: الركائز المادية وتدابيرها:

(أ) التدابير البيئية (تدابير حفظ وحماية الموارد):

(١) حفظ البقاء:

حث الإسلام على صون الموارد وعدم العبث بها والحفاظ عليها من التلف؛ فاعتبر إهلاك الحرث أحد صور الإفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقد ذكر الإمام الطبري في تفسيره: أن الآية نزلت في الأخنس بن شريق، حيث قدم على رسول الله ﷺ فزعم أنه يريد الإسلام، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمر بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر فأحرق الزرع وعقر الحُمُر[٣].

(٢) حفظ الأداء:

حرصت الشريعة على سلامة الموارد والحياة الفطرية، فحثت على حمايتها ورعايتها، فأقرت ما عرفه العرب قديمًا بـ «الحِمى»، وهي الأرض الموات التي تحمى من الرعي فيها؛ ليكثر عشبها فترعاها بهائم خاصة.

ونهت عن إفساد البيئة بالتلوث -على اختلاف مجالاته- واعتبرته ضررًا محرمًا؛ لما له من تأثيرات سيئة على موارد البيئة والصحة العامة، وفي حديث معاذ ﷺ مرفوعًا: (اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل)[٤]، والموارد هي المَجاري والطرق إلى الماء[٥]، وجاء في الصحيح عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ (نهى أن يبال في الماء الراكد)[٦].

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).
(٢) أخرجه مسلم (١٥٥٢)، ويرزؤه: ينقصه ويأخذ منه.
(٣) تفسير الطبري (٥٧٢/٣).
(٤) أخرجه أبو داود (٢٦).
(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (١٧٣/٥).
(٦) أخرجه مسلم (٢٨١).

ويدخل في ذلك حكمًا كل ما من شأنه التأثير على هذه الموارد ووظائفها.

(ب) التدابير الاقتصادية (تدابير الإنماء والإثراء):

قدمت الشريعة منهجًا متكاملاً للاستفادة المثلى من الموارد كيفًا وكمًا، على النحو التالي:

(١) استغلال الموارد وتحريم تعطيلها:

حيث دعت الشريعة إلى إحياء الأرض وعمارتها، وحرَّمت تعطيل استغلال مواردها، قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، قال القرطبي رحمه الله: «ولو عمد رجل إلى ضيعة له فقال: هذه تكون حبسًا لا يجتنى ثمرها ولا تزرع أرضها، ولا ينتفع منها بنفع، لجاز أن يشبه هذا بالبحيرة والسائبة»[١].

(٢) الانتفاع بالموارد وفقًا لغايتها الفطرية:

اهتمت تعاليم الإسلام بكيفية استغلال الموارد المتاحة على النحو الذي يحقق المنفعة منها والغاية التي خلقها الله من أجلها، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (بينما رجل راكب على بقرة، التفتت إليه فقالت: لم أُخلق لهذا، خُلقتُ للحراثة)[٢]، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من قتل عصفورًا فما فوقها بغير حقها سأله الله عنه يوم القيامة)، قيل: وما حقه؟ قال: (أن تذبحها فتأكلها)[٣].

(٣) تدوير المخلفات وإعادة استخدامها:

حثت الشريعة على الاستفادة الكاملة من الموارد، وعدم هدر أي جزء منها، عبر تدويرها أو إعادة استخدامها، من ذلك ما جاء عن ميمونة ﷺ أنها قالت: مرّ رسول الله ﷺ بشاة يجرونها، فقال: (لو أخذتم إهَابها) فقالوا: إنها ميتة، فقال: (يطهرها الماء والقَرَظ)[٤].

(٤) تحريم الاستغلال الجائر للموارد (الإسراف):

نهت الشريعة عن الإسراف في استغلال الموارد ولو كانت وفيرة، قال ابن كثير في تفسير قول الله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه: ٨١]، أي كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي فتأخذوه من غير حاجة[٥].

وجاء عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ مرّ بسعد ﷺ وهو يتوضأ فقال: (ما هذا السرف؟)، فقال: أفي الوضوء إسراف؟!، قال: (نعم، وإن كنت على نهر جار)[٦]. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يسأله عن الوضوء، (فأراه ثلاثًا ثلاثًا، ثمَّ قال: هذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدّى وظلم)»[٧].

(٥) الحث على السعي في طلب الرزق:

حثت الشريعة على العمل والسعي للتكسب، عن الزبير بن العوام ﷺ عن النبي ﷺ قال: (لأنْ يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها، فيَكُف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)[٨]. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ما أكل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)[٩].

> **حثت الشريعة على الاستفادة الكاملة من الموارد، وعدم هدر أي جزء منها، عبر تدويرها أو إعادة استخدامها**

(ج) التدابير الاجتماعية (تدابير المشاركة والعدالة):

يمكن الوقوف على عدة صور من الحقوق الاجتماعية التي ترتبط بمفهوم التنمية المستدامة، ويشكّل حصولها إقامة لميزان العدل الذي حث عليه الشرع الحنيف:

(١) تفسير القرطبي (٣٣٨/٦).
(٢) أخرجه البخاري (٢٣٢٤).
(٣) أخرجه النسائي (٤٤٤٥).
(٤) أخرجه أبو داود (٤١٢٦)، الإهَاب: جلد حيوان عولج بهدف الاستخدام البشري، القَرَظ: حَبُّ شَجَر السَّلَم، يدبغ به الأديم أو الجلد.
(٥) تفسير ابن كثير (٣٠١/٥).
(٦) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥).
(٧) أخرجه أحمد (٦٦٨٤).
(٨) أخرجه البخاري (١٤٧١).
(٩) أخرجه البخاري (٢٠٧٢).

(١) الشراكة والمشاركة:

من أهداف التنمية المستدامة في إعلان الأمم المتحدة: تنشيط الشراكة من أجل التنمية المستدامة، وهو يتوافق مع ما تضمنته تعاليم الشريعة الإسلامية من إرشادات محفزة لتحقيق شراكة مجتمعية حقيقية، فقد دعت نصوص الشريعة في كثير من المواضع إلى التناصح والتعاون، وهي صور متعددة من المشاركة المجتمعية قولاً أو فعلاً، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. وحثت الشريعة على الشورى، قال الله عز وجل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ووصف الله تعالى المؤمنين بذلك فقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، والتعبير بالجملة الاسمية يفيد الدوام والاستمرار.

(٢) المساواة والعدالة:

تضمن القرآن الكريم آيات عديدة تتعلق بالمساواة، تخاطب الذكر والأنثى في قضايا متعددة؛ بما يخدم أهداف التنمية المستدامة، فقد خاطب القرآن الرجال والنساء على قدم المساواة بشأن العمل الصالح في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]. وعن أم المؤمنين عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال: (إنما النساءُ شقائق الرجال)[١]، وهو تقريرٌ لعموم المساواة بين الرّجل والمرأة؛ فالرّجل والمرأة متساويان في الجوهر والأهليّات الإنسانيّة، وفي القواسم والملكات المشتركة، وفي التّكليف وحمل الأمانة. لكنها من منظور الشريعة ليست المساواة المطلقة التي يهتف بها البعض؛ فالعلاقة بينهما على وفق الاختلاف في التّكوين هي علاقة تكامل وظيفيّ. أما «تمكين المرأة» فقد نجحت تعاليم الإسلام في تحقيقه يوم أن حرّم وأدها، ومكّنها من الحصول على كامل حقوقها الاجتماعية والأسرية والاقتصادية والسياسية[٢].

كذلك أرست تعاليم الشريعة مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع فئات المجتمع دون تمييز؛ مما أسهم في تطوير فكرة العدالة في الحضارة الإسلامية، وقد انعكس ذلك في الفتوحات الإسلامية؛ فلم يعامل المسلمون سكان البلاد الأصلية على أنهم عبيد، بل سعوا إلى تعليمهم وتثقيفهم وجعل هذه البلاد حواضر إسلامية لا تقل شأنًا عن مركز الخلافة. وهو ما أكد عليه الخلفاء الراشدون وحكام المسلمين مرارًا، ومن ذلك ما يُنسب لعلي بن أبي طالب ﵁ في كلماته إلى والي مصر بقوله: «واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض؛ فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الانصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجات والمسكنة، وكل قد سمى الله له سهمه، ووضع على حده وفريضته في كتابه أو سنة نبيه ﷺ عهدًا منه عندنا محفوظًا»[٣].

كلّ ذلك كفيل بتسهيل وصول جميع أفراد المجتمع للموارد دون حرمان، كما أنّ فيه ضمانة لحماية الدول الفقيرة من المخاطر البيئية والصحية والتلوّث الناتجة عن رمي المخلفات في أراضيهم، وهو ما يعبر عنه في الوقت الحالي بمصطلح «العدالة البيئية». هذا الأمر يمثل في العصر الحاضر تحديًا كبيرًا، فبعض المجتمعات الغربية مثل الولايات المتحدة الأمريكية لا تزال فكرة التمييز الطبقي متجذرة فيها، وكثير من الدول الصناعية تُصَدّر نفاياتها الخطرة عبر الحدود لدفنها في أراضي الدول الفقيرة، في مخالفة واضحة للاتفاقيات الدولية، ودون اعتبار للحقوق الإنسانية[٤].

(٣) التكافل بين الطبقات والأجيال:

» التكافل بين طبقات المجتمع:

اعتنت الشريعة الإسلامية بقضية التوزيع العادل للثروات، والذي يجب أن يراعي كفاية الحاجات لمجموع الأمة، وبعد ذلك يكون التفاوت

(١) أخرجه أبو داود (٢٣٦).

(٢) المرأة في وثيقة خطة التنمية المستدامة ٢٠٣٠م، سامية بن قوية، مجلة آفاق علمية، المجلد: ١١، العدد: ٢، ٢٠١٩م، ص (٢١٩).

(٣) نهج البلاغة، ص (٨٩-٩٠)، وينظر: الأبعاد الروحية والمادية للأمن المجتمعي في الإسلام، في: مقومات الأمن المجتمعي في الإسلام، محمد عمارة، سلسلة قضايا إسلامية، العدد (١٥٨) القاهرة، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص (٩٣).

(٤) العدالة البيئية في الإسلام، صبحي رمضان فرج سعد، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٦٥١، الكويت، ذو القعدة ١٤٤٠هـ - يوليو ٢٠١٩م، ص (٤٧).

في الحيازات -تبعًا للعمل والجهد- حتى لا يزداد غنى الأغنياء، فتصبح الأموال والثروات حكرًا عليهم ودُولة بينهم[١]، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، والمعنى: أن جميع ما في الأرض مخلوق للناس جميعًا، لا تستأثر به فئة دون أخرى[٢].

وحثت الشريعة الإسلامية على دعم ومساندة الفئات الفقيرة والمهمشة، ويتفق مع ذلك الهدف الأول من أهداف التنمية المستدامة بحسب إعلان الأمم المتحدة؛ حيث أولت الشريعة عناية بالفئات الفقيرة، وجاءت بأعظم نظم التكافل الإنساني، من زكوات متنوعة تكفي لسد حاجة الفقراء، وأوقاف خيرية لصالح الفقراء والمرضى وطلاب العلم والمنافع الخدمية كالمستشفيات

حثت الشريعة الإسلامية على دعم ومساندة الفئات الفقيرة والمهمشة، ويتفق مع ذلك الهدف الأول من أهداف التنمية المستدامة بحسب إعلان الأمم المتحدة

وغيرها، وصدقات تطوعية، وغيرها. وهذا العطاء علامة بارزة تؤكد عظمة شريعتنا الإسلامية.

» التكافل بين الأجيال:

سبق الإسلام جميع التشريعات في الاهتمام بحقوق الأجيال القادمة، بينما عمدت قوى الرأسمالية إلى الاستحواذ على أكبر قدرٍ ممكن من الموارد والحد من عدد سكان الأرض خوفًا من نقص الموارد؛ فعمدوا إلى الإغراق في صناعة السلاح وإبادة البشر بالحروب.

عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسَم رسول الله ﷺ خيبر»[٣]، وعن إبراهيم التيمي، قال: «لما افتتح المسلمون السواد قالوا لعمر بن الخطاب ﷺ: «اقسمه بيننا»، فأبى، فقالوا: «إنا فتحناه عنوة»، قال: «فما لمن جاء بعدكم من المسلمين؟!»[٤].

ومن صور التكافل: أنّ الشريعة حثت الآباء على ترك أولادهم أغنياء لا فقراء، فعن سعد بن أبي وقاص

من النماذج الراشدة التي ساقها القرآن في التنمية المستدامة: خطة ذي القرنين في درء ومجابهة خطر اعتداء المفسدين (قوم يأجوج ومأجوج)، وخطة نبي الله يوسف عليه السلام في إدارة الموارد ومجابهة خطر الجفاف الذي ضرب مصر. وقامت كلتا الخطتين على منطلق إيماني واضح، استلهمتا فيه الرشد والعون والتمكين من الله عز وجل

ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنك أنْ تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس)[٥].

ثالثًا: خطط وبرامج التنمية المستدامة - نماذج راشدة في ضوء القرآن الكريم:

نقل القرآن الكريم نماذج لخطط ناجحة في تحقيق أهداف التنمية المستدامة في إطار شمولي يتضمن الأخذ بالأسباب المادية والروحية معًا، بما يلبي حاجة الفرد والجماعة في تناسق تام وتعاون بين جميع أفراد المجتمع.

ومن النماذج الراشدة التي ساقها القرآن في هذا الشأن: خطة ذي القرنين في درء ومجابهة خطر اعتداء المفسدين (قوم يأجوج ومأجوج)، وخطة نبي الله يوسف عليه السلام في إدارة الموارد ومجابهة خطر الجفاف الذي ضرب مصر. وقامت كلتا الخطتين على منطلق إيماني واضح، استلهما فيه الرشد والعون والتمكين من الله عز وجل.

(أ) خطة ذي القرنين في درء ومجابهة المخاطر:

لقد تتبع العبد الصالح ذو القرنين السُبلَ والوسائل التي تعينه على تحقيق أهدافه وطموحاته

(١) الإسلام والأمن الاجتماعي، لمحمد عمارة، ص (٣٦-٤٠).
(٢) دور الزكاة في علاج المشكلات الاقتصادية وشروط نجاحها، ليوسف القرضاوي، ص (٤٩).
(٣) أخرجه البخاري (٢٣٣٤).
(٤) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن المبرد، (٤٥٦/٢)، وتشريع تقسيم الأرض المفتوحة بعد القتال كان من الأمور الاجتهادية التي تركها الشرع للناس ليجتهدوا فيها برأيهم؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم قد قسم الأرض المفتوحة مرة، ولم يقسمها أخرى، والضابط في ذلك مصلحة المسلمين، ورفْضُ عمر رضي الله عنه لتقسيم الأراضي المفتوحة كان اجتهادًا صائبًا منه، بُني على بعد نظر؛ لتكون تلك الأراضي وقفًا للأجيال القادمة، يتوارثونها جيلاً بعد جيل، ولو لم يفعل لما بقي لمن يأتي بعدهم شيء، وحتى لا يتجمع المال في أيدي فئة من المسلمين دون غيرهم.
(٥) أخرجه البخاري (١٢٩٥) ومسلم (١٦٢٨).

نماذج تطبيقية
لتدابير التنمية المستدامة في القرآن الكريم

خطة ذي القرنين في درء ومجابهة المخاطر

١- قيادة ذات كفاءة ورؤية إصلاحية.
٢- العدل.
٣- التعليم.
٤- التعاون والمشاركة الشعبية.
٥- الإدارة والتحسين المستمر.

خطة نبي الله يوسف عليه السلام في إدارة الأزمات

١- الأمانة والعلم.
٢- العدل
٣- التعاون والمشاركة.
٤- العمل الدائب الذي لا ينقطع.
٥- حفظ الموارد من التلف والفساد.
٦- عدم الإسراف في الاستهلاك.
٧- تحقيق فائض يسمح بإعادة الإنتاج.

في الدعوة والإصلاح ونشر العدالة والرحمة، وتضمنت الخطة العديد من التدابير الضرورية لتحقيق أهداف التنمية المستدامة، أبرزها:

١- قيادة ذات كفاءة ورؤية إصلاحية:

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]، أي: ما أعطانيه ربي من الملك والتمكين خير لي من المال، وطلب منهم العمل بأنفسهم وتوظيف إمكاناتهم البشرية والمادية في إنجاز المطلوب. وفي إطار من حسن المعاملة نجده يطلب إعانة القوم له، وكأنه هو الذي يحتاج إليها.

٢- العدل:

كان ذو القرنين عادلاً، فسار في البلاد مدافعًا عن الحق ومقيمًا لميزان العدل بين جماعات البشر، ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧-٨٨].

٣- التعليم:

أول أسباب التمكين العلمُ والمعرفة، ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]؛ وقد طلب منهم ذو القرنين رص قطع الحديد بين الصدفين (الجبلين) حتى ساوى بينهما (التخطيط الهندسي)، ثم علمهم ومن خلال العمل والتطبيق المباشر وبأيديهم تقنيات البناء.

٤- التعاون والمشاركة الشعبية:

من أسوأ مثالب التنمية في كثير من الدول النامية: عدم مشاركة الشعوب في اتخاذ القرارات التنموية، حيث تفرض عليهم مشاريع التنمية والتي يغلب عليها في بعض الأحيان طابع الفساد، وربما لا تلبي الأولويات واحتياجات الناس الحقيقية، بينما نجد ذا القرنين يشرك الناس في تنمية بلادهم وحل مشكلاتهم.

٥- الإدارة والتحسين المستمر:

من خلال تخطيط محكم يتضمن من الوسائل المثلى تحقيق هدف واضح، شارك المستضعفون في عمل جاد، استخرجوا به الحديد من الأرض، قال تعالى: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]، ثم صهروه ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ [الكهف: ٩٦]، ثم يأمر مجموعة أخرى أن تُعد نحاسًا مصهورًا، ليفرغ منه على الأول، ليصبح السد قطعة واحدة، كما أصبح الشعب سبيكة واحدة وجسدًا واحدًا.

(ب) خطة نبي الله يوسف عليه السلام في إدارة الموارد والأزمات:

تضمنت سورة يوسف عدة إشارات مهمة للأهداف التي ترنو إليها التنمية المستدامة، حيث مرت مصر بأزمة بيئية استمرت زهاء خمسة عشر عامًا إبان حكم الهكسوس، فجاء على لسان نبي

الله يوسف عليه السلام مؤولاً رؤيا الملك: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧-٤٩].

وتمثلت أهم مقومات هذه الخطة فيما يلي:

١- الأمانة والعلم:

يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]؛ فقد طلب عليه السلام تولّي أمر هذه الخطّة لأنّه يتصف بالأمانة والعلم.

٢- العدل:

لمواجهة المجاعة والفقر قسّم سيدنا يوسف عليه السلام المكاييل بالعدل، وكان يشرف بنفسه على توزيع الأقوات، ولم ينس أهل البلدان التي امتدت إليها المجاعة، قال الله تعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥]، وكانوا في بلاد الشام.

٣- التعاون والمشاركة:

كان يشارك في خطة نبي الله يوسف الشعب المصري بأكمله، فخطته اعتمدت على التشغيل الكامل للأمة، في الوقت ذاته كان عليه السلام يشارك الناس فيما هم فيه، فكان يأكل ولا يصل إلى حدّ الشبع، وكان يقول: "أخشى إن شبعت أن أنسى الجياع"، وهي صفة من أهم صفات القائد.

٤- العمل الدائب الذي لا ينقطع:

يقول الله تعالى: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧]، ودأباً أي بشكل متواصل، مع الجد والاجتهاد.

٥- حفظ الموارد من التلف والفساد:

لا يعني العمل المتواصل استهلاك كل نتاج لهذا العمل، وإنما يتعداه إلى حمايته من العوامل البيئية التي يمكن أن تؤدي إلى فقدانه وتلفه، قال الله تعالى: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ [يوسف: ٤٧]. فحفظ القمح في سنابله من الوسائل الناجحة في الحفظ من التلف أو الإصابة بالأمراض وغزو الحشرات؛ وهذا من شأنه إطالة أمد بقائها صالحة للاستخدام دون تلف.

٦- عدم الإسراف في الاستهلاك:

يشير قول الله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ إلى ضرورة الاقتصاد الاستهلاكي، إذ أتى بما يأكله الناس ويقتاتون به في موضع الاستثناء وأكده بقوله: "قَلِيلاً".

٧- تحقيق فائض يسمح بإعادة الإنتاج:

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]، وتحقيق هذا الفائض ليس هدفًا في ذاته، وإنما لا بد من حسن توظيف لهذا الفائض في العملية الإنتاجية، بما يساعد على إعادة الإنتاج وتحقيق الرخاء.

ومع الأخذ بالأسباب المادية لتحقيق أهداف التنمية المستدامة، تكون نسبة التوفيق لعمل الخير إلى الله عز وجل، كما جاء على لسان نبي الله يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

خاتمة:

التنمية المستدامة وفق التصور الإسلامي لم تكن غاية في ذاتها كما كانت في الفكر الغربي المعاصر، والذي حصرها في بُعدها الاقتصادي المادي، وجعل مقياسها وغايتها زيادة الإنتاج وتحسينه، وهو ما انعكس سلبًا على الأبعاد البيئية والاجتماعية لعملية التنمية؛ فترتب على ذلك استنزاف موارد البيئة وتدهورها وضعف العلاقات والروابط الاجتماعية وانتشار النزاعات اللاأخلاقية، فقد تميزت الشريعة الإسلامية في جانبها الروحي، وبالرغم من اتفاق الأفكار والنظم الوضعية الحديثة مع إرشادات وتعاليم الشريعة الإسلامية في أغلب ما جاءت به في الجانب المادي للتنمية المستدامة، إلا أن المنهج الإسلامي يظل متفردًا بسبقه وشموله وواقعيته وعمق معالجته للمشكلات المتعلقة بهذا الجانب.

وفي ضوء ذلك، يتضح بجلاء أهمية العودة إلى تعاليم الدين الحنيف كاملة، وجعلها منهاجًا في الحياة، والحرص على التنمية الشاملة للإنسان باعتباره أساس التنمية وغايتها.

وضرورة تطوير النظم التربوية والتعليمية والمناهج الدراسية بتضمينها الرؤية الإسلامية لقضايا التنمية المستدامة؛ وتشجيع وتنمية طرق تربوية وشراكات علمية وبحثية تدعم العمل الجماعي والتطبيقي وفق هذا المنظور.

دور القيادة الرشيدة في نهضة المجتمعات

أ. عباس شريفة (*)

في لحظات التحول الكبرى تبرز القيادة الرشيدة كالبوصلة التي تهدي المجتمعات نحو الرخاء والاستقرار، فالقيادة ليست مجرد موقع أو سلطة، بل رؤية تُلهم، وحكمة تُنقذ، وقرار يصنع الفرق بين الجمود والنهوض، وحين يقترن العدل بالحكمة؛ تُزرع بذور التنمية في أرض الشعوب، فتنبت حضارة تستند إلى الثقة، وتُسقى بالمسؤولية، وفي زمن التحديات: وحدها القيادة الواعية تصنع الفارق.

مقدمة:

يؤكد القرآن الكريم في آياته البينات على الدور القيادي والأستاذي للأمة الإسلامية تجاه الإنسانية جمعاء؛ وذلك بما تمتلك من رسالة ربانية خالدة ومستوعبة لكل جوانب الاحتياج البشري في المعاش والمعاد على الوجه الأكمل، وبما تمتلكه من رؤية ورسالة وأهداف وأدوات وثروات وتراث وإنتاج حضاري وثقافي وقيادة رمزية تتعلق بالقيادة النبوية الأخلاقية للإنسانية.

وهو ما يعضده معنى ظهور الأمة والرسالة على الأديان قاطبة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، ويبدو أن الظهور هنا هو ظهور حجة وبيان، وظهور قوة وسلطان، كما تظاهرت الأدلة النقلية على بلوغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار.

وكذلك تفضيل هذه الأمة بالشهادة على العالمين كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

لكن بلا شك لن تتمكن الأمة الإسلامية -لا على مستوى الدول ولا على مستوى الجماعات- من تأدية دورها الرسالي تجاه العالم والإنسانية إن لم تكن هي نفسها تتمتع بقيادة راشدة قادرة على حشد الأفراد والمؤسسات والطاقات تجاه تحقيق الرؤية، قائمة بمهمة الدعوة والحرب على المنكر وإشاعة المعروف

(*) باحث في الصراعات والفكر الإسلامي.

في وضع إنساني بات على شفا جرف هار بسبب النكوص الأخلاقي عن غرائز الفطرة، وشيوع حالة التفكك والفردانية الأنانية التي تنقاد وراء شهوتها بلا خطام ولا زمام ولا إمام.

وقد باتت الإنسانية اليوم تعاني من أزمة قيادة على مستوى العالم، حتى على مستوى الدول العظمى مثل الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت تُعرف بإنتاجها لقيادات كبيرة تُعبر عن حجم قوتها أصبحت الآن عاجزة عن إنتاج قيادات جديدة تليق بمكانتها كقوة عظمى، وهو جزء من مشهد النقص العالمي في إعداد القادة، لكن الدول المتقدمة تعوض هذا النقص بالاعتماد على المؤسسات القوية والبراعة الإدارية لسد العجز القيادي.

في المقابل، نجد أن حالة المجتمعات العربية والإسلامية تعاني من تخلف كبير وفجوة واسعة في بناء المؤسسات والأنظمة الإدارية، بالإضافة إلى نقص شديد في القيادة الكفؤة؛ مما يجعل الأزمة مضاعفة وخطيرة على كل المستويات وخصوصًا في جانب العمل السياسي والثقافي، فالسياسة في الشرق لا يمكن أن تقوم إلا من خلال ثلاثية الفريق المحترف، وبرنامج عمل واضح، والقيادة الكاريزمية القادرة على صوغ الرؤى وتوظيف الطاقات وترشيد الموارد ضمن تخطيط استراتيجي محكم. وبالتالي فإن أي عمل جماعي -سواء كان دعويًا أو اجتماعيًا أو سياسيًا- يحتاج إلى نظام متين وقيادة فعالة قادرة على الاتصال والحشد وتفعيل الطاقات والاستثمار الأمثل للموارد.

لن تتمكن الأمة الإسلامية -لا على مستوى الدول ولا على مستوى الجماعات- من تأدية دورها الرسالي تجاه العالم والإنسانية إن لم تكن هي نفسها تتمتع بقيادة راشدة قادرة على حشد الأفراد والمؤسسات والطاقات تجاه تحقيق الرؤية، قائمة بمهمة الدعوة، والحرب على المنكر وإشاعة المعروف

مفهوم القيادة المسؤولة:

يمكن تعريف القيادة بأنها «عملية تحريك مجموعة من الناس باتجاه محدد ومخطط وذلك بتحفيزهم على العمل باختيارهم». والقيادة الناجحة تحرك الناس في الاتجاه الذي يحقق مصالحهم على المدى القريب والبعيد، وقد يكون ذلك اتجاهًا عامًا مثل نشر الدعوة، أو اتجاهًا محددًا مثل عقد مؤتمر يتناول قضية معينة[1]. إذن فالقيادة هي القدرة على تحريك الأتباع نحو تحقيق الهدف، وهي مهمة شريفة مارسها الأنبياء في قيادة مجتمعاتهم نحو الإسلام والدين الحق لتحقيق سعادتهم في العاجل والآجل، وبتوسيع هذا المعنى يتضح أننا -كمسؤولين عمن يقع تحت ولايتنا- نمارس القيادة على كل المستويات؛ إن كان على مستوى البيت أو المسجد أو المنظمة أو التنظيم أو المؤسسات، ونحاول أن نحرك من يقع تحت ولايتنا لتحقيق رؤيتنا وأهدافنا، ونستخدم أساليب التحفيز والتخطيط في سبيل ذلك كما دل حديث الرعاية في قوله ﷺ: (كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته)[2]، وهكذا فإن القيادة ليست معنى محصورًا في زمرة اجتماعية دون غيرها، وإنما هي سلوك عام لكل من تقع المسؤولية على عاتقه، حتى لو كانت مسؤولية محدودة كالخادم الذي يدير مال سيده.

وهنا لا بد من التنويه للتصور الخاطئ لمسألة القيادة، حيث لا يزال البعض يحمل ثقافة الطغاة في فهم معنى القيادة، ويجعلها قسيم التسلط والطغيان واللهث وراء المناصب والمغنم.

وفي الحقيقة، وكما بيّنت نصوص السنة فإن القيادة مسؤولية ثقيلة يتجنبها العقلاء ويدركون ثقلها، كما يظهر في طلب النبي موسى عليه السلام من ربه قائلاً: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩-٣٠]، وهنا لا بد من ترسيخ معنى القيادة المرتبط بالخدمة للناس ورعاية مصالحهم كما قال رسول الله ﷺ: (سيد القوم في السفر خادمهم)[3].

(١) دليل التدريب القيادي، سلسلة التنمية البشرية، هشام الطالب، ص (٥٢).
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٠٩)، ومسلم (١٨٢٩).
(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨٤٠٧).

أهمية دور القيادة في تحقيق استقرار المجتمعات ونهضتها:

تعد الأمة الإسلامية من أغنى الأمم والمجتمعات بالموارد البشرية والثراء النسبي بعنصر الشباب، لكن رغم هذا الثراء الفاحش ما تزال الدول الإسلامية في خانة الضعف على المستوى الدولي، والمجتمعاتُ الإسلامية من أضعف المجتمعات في قدرتها على استثمار الموارد البشرية والكوادر؛ بسبب ضعف التأهيل القيادي لديها، فالقيادة الراشدة هي القادرة على توجيه الطاقات الشبابية نحو العمل ضمن المنظومات الإدارية وضمن أطر العمل الجماعي، وبدونها تغيب منظومات العمل الجماعي وتترك سفينة المجتمع لقيادة السفهاء الذين حذر رسول الله ﷺ من تحكمهم بمصير المجتمع وتركهم يعبثون بسلامته، كما جاء في حديث السفينة: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا)[1]، وهو نص واضح التحذير من ترك مصير الأمة والمجتمع لقيادة السفهاء قاصرة النظر والتي تتصرف بأنانية وفردانية؛ مما يغرق المجتمع بالفساد والفوضى حينما يتنكب أولو الأحلام والنهى عن دورهم، كما قال الشاعر القاضي عبد الوهاب المالكي:

ومَن يُثني الأصاغرَ عن مرادٍ
وقد جلس الأكابرُ في الزوايا

وإنّ ترفّعَ الوُضعاء يومًا
على الرُفعاءِ من إحدى البلايا[2]

وهكذا يتضح أن البشر لا يستقيم أمرهم ويُحفظ وجودهم بدون رأس يرجعون إليه لحسم خلافهم وإدارة مصالحهم، وهو ما عبر عنه عالم الاجتماع المسلم عبدالرحمن بن خلدون: «قد بيّنا أنّ البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلّا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروريّاتهم، وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات ومدّ كلّ واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه؛ لما في الطبيعة الحيوانيّة من الظلم والعدوان بعضهم على بعض، ويمانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة ومقتضى القوة البشريّة في ذلك؛ فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة وهي تؤدّي إلى الهرج وسفك الدماء وإذهاب النفوس المفضي ذلك إلى انقطاع النوع، وهو ممّا خصّه الباري سبحانه بالمحافظة، فاستحال بقاؤهم فوضى دون حالم يَزَع بعضَهم عن بعض، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم»[3]. وقد أبدع ابن خلدون حيث شبه الجماعة التي تعيش بلا نظام ولا إمام أنهم أقرب إلى الطبيعة الحيوانية، مع أن الكثير من المجتمعات الحيوانية كعالم الطيور والنمل والنحل تعيش ضمن نظام صارم وقيادة ترعى مصالحها. ومع ذلك قد تكون هناك قيادة ذات كفاءة عالية لكنها لا تستطيع تحقيق الأهداف في بيئة من الفساد الاجتماعي والانحطاط الأخلاقي، مثال ذلك ما حدث مع نبي الله موسى عليه السلام، حيث لم يتمكن من تحريك بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة رغم أن دخولها أمر إلهي، ورغم ما رأت أعينهم من آيات الله تعالى في تنجيتهم من فرعون وجنوده؛ وما ذاك إلا بسبب ظروفهم النفسية والاجتماعية التي كانوا يعانون منها بعد فترة طويلة من حالة الاستعباد والقمع في ظل حكم فرعون؛ فألفوا حياة الذل والهوان كما أخبر عنهم القرآن في ردهم على نبي الله موسى عليه السلام: ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢١-٢٢]. ولعل من حكمة الله تعالى قبل أن يبعث موسى نبيًا في بني إسرائيل: اختياره أن يتربى في قصر فرعون في مكان بعيدٍ عن مرتع الذل والعبودية، وليألف التمرس على القيادة والعزة في منعة وقوة.

وهكذا.. قد تكون أزمة القيادة أزمة اجتماعية مستعصية على التنظيم بسبب تفكك العصبات الاجتماعية والمجتمع الأهلي بسبب الضغط الذي تمارسه الدولة الحديثة اليوم على النظم الاجتماعية لأجل تفكيكها وربط الأفراد بالدولة، وليست أزمة شغور قيادي، وقصة سيدنا موسى عليه السلام هي أبرز دليل تاريخي على كون أزمة القيادة ناتجة عن أزمة في الأتباع وليست في القائد ذاته.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٩٣).
(٢) الديباج المذهب، لابن فرحون (٢٨/٢).
(٣) مقدمة ابن خلدون (٢٣٤/١).

القيادة الراشدة هي القادرة على توجيه الطاقات الشبابية نحو العمل ضمن المنظومات الإدارية وضمن أطر العمل الجماعي، وبدونها تغيب منظومات العمل الجماعي وتترك سفينة المجتمع لقيادة السفهاء الذين حذر رسول الله ﷺ من تحكّمهم بمصير المجتمع وتركهم يعبثون بسلامته، كما جاء في حديث السفينة

مركزية أزمة القيادة في المجتمعات المسلمة:

إن أزمة القيادة هي الأزمة الأساسية التي تواجه الأمة في هذه المرحلة الحرجة من التاريخ، وقد أشار الحديث النبوي الشريف إلى أهمية القيادة وربطها بعلامات الساعة، حين قال: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة). قيل: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: (إذا وُسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)[1].

ولقد أشار ابن تيمية -رحمه الله- إلى هذا المعنى في كتابه: «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» حينما فسر معنى الأمانة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨-٥٩]، بقوله: «قال العلماء: نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور، عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، ونزلت الثانية في الرعية من الجيوش وغيرهم، عليهم طاعة أولي الأمر الفاعلين لذلك في قَسْمهم وحُكْمهم ومغازيهم وغير ذلك، إلا أن يأمروا بمعصية الله عز وجل، فإذا أمروا بمعصية الله عز وجل فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإن تنازعوا في شيء ردوه إلى كتاب الله»[2]، وفي ربط القيادة بالأمانة معنىً أخلاقي عميق، لا نجده في الاتجاهات القيادية الحديثة التي تربط فكرة القيادة بالميكافيلية المتجردة عن القيم.

وأهلية القيادة هنا تشير إلى توفر المعايير الضرورية في القائد، مثل: الكفاءة، والعلم، والأمانة.

وإسناد الأمور إلى غير أهلها يُعتبر مؤشرًا خطيرًا على تدهور الأنظمة والمجتمعات، ففقدان الأهلية القيادية هو الخطر الأكبر الذي يواجه المجتمعات الإسلامية والعربية، ويجعلها غير قادرة على مواجهة التحديات بفعالية.

وهنا يبدو أن تصدير ثقافة الغثائية -التي ترمز للتفكك والفردانية وغياب الوجهة وذهاب الريح والبأس لتبقى المجتمعات الإسلامية بلا قيادة تذود عن حماها وتحفظ بيضتها- هو المخطط الذي يستهدف المسلمين، كما بين ذلك رسول الله ﷺ وهو يفسر حالة الوهن العام للمسلمين: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: (حب الدنيا وكراهية الموت)[3]، ومعلوم أن غثاء السيل هجين من عناصر غير مؤتلفة تطفو على وجه الماء بلا وزن ولا قيمة وتقاد بقوة السيل مسيرة بلا قرار لها.

وأمام هذه الحالة الغثائية تتقدم القيادات التافهة بعد أن تم توهين مناعة المجتمع ليقاد نحو السفاسف والترهات كما بين رسول الله في حديث الرويبضة: (سيأتي على الناس سنوات خدّاعات، يصدّق فيها الكاذب، ويكذّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخوّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة)، قيل: وما الرويبضة؟ قال: (الرجل التافه في أمر العامة)[4]، وهو ما بات واضحًا في وسائل التواصل الاجتماعي، حيث بات التافهون يحظون بالأتباع والمعجبين وبدعم وسائل الإعلام لهم، ويصنعون الرأي العام ويقودون شرائح اجتماعية واسعة من خلال المحتوى السخيف الذي يفيضون به بحثًا عن الشهرة السريعة والتأثير.

وهو ما حذر منه أبو الأسود الدؤلي:

لا يصلحُ الناسُ فوضى لا سَراةَ لهم
ولا سَراةَ إذا جهّالهُم سادوا[5]

(١) أخرجه البخاري (٥٩).
(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية، ص (٥).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧).
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٦).
(٥) ديوان أبي الأسود الدؤلي، ص (١٨٢).

فقدان الأهلية القيادية هو الخطر الأكبر الذي يواجه المجتمعات الإسلامية والعربية، ويجعلها غير قادرة على مواجهة التحديات بفعالية

أثر غياب القيادة المؤهلة على مصير المجتمعات والدول:

بعد وفاة رسول الله ﷺ فطن الصحابة ﷺ إلى أهمية دور القيادة وخطر بقاء الأمة ولو ليوم واحد بلا رأس؛ فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة قبل أن يوارى جسد رسول الله ﷺ لاختيار قائد للأمة، وقد أدركوا أن الرسالة ليست مرتبطة بحياة رسول الله ﷺ، ولا بد من اختيار خليفة وقائد لتستمر الرسالة، وقد أنجزوا بيعة أبي بكر ﷺ في ظرف سياسي معقد؛ فقد ارتدت العرب قاطبة إلا مكة والمدينة والطائف، وبدأت تحركات الروم للغدر بالمسلمين، وأصبح المسلمون وكأنهم شياه في ليلة مطيرة في أرض مسبعة، فتصرف أبو بكر برباطة جأش وأنفذ جيش أسامة بن زيد لتأديب الروم رغم الخطر المحدق بالمدينة المنورة، ورغم نهي البعض له عن إنفاذ جيش أسامة بسبب إحاطة المرتدين بالمدينة فقد أصر على تنفيذ وصية رسول الله ﷺ وأرسل بذلك رسالة حازمة للروم والعرب أن المسلمين ليسوا في ضعف من أمرهم، ثم أعلن حربه على المرتدين ومانعي الزكاة رغم معارضة عمر ﷺ له بادئ الأمر، فحفظ الله به البيضة وأنقذ الأمة من خطر داهم وأعاد للإسلام هيبته وسطوته على الجزيرة العربية، وذلك ببركة الائتلاف واجتماع الكلمة على قيادة أبي بكر[1].

إن عدم الاجتماع على قيادة موحدة هو مرض إسرائيلي أصاب اليهود من قبل، ولم تتفق كلمتهم على قائد لهم حتى حُسم الأمر بوحي من السماء باختيار طالوت ملكًا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، ومع ذلك عادوا للاعتراض قائلين: «نحن أحق بالملك منه»، وهذا هو لسان حال بعض من يتبع سنن اليهود في رفض أي قيادة مهما أوتي من الصفات المرضية.

المشكلة الحقيقية تظهر عندما يريد كل فرد أن يكون قائدًا دون أن يتقن مهارة أن يكون جنديًا، والتجارب أثبتت أن أفشل القادة هم من لا يحسنون الجندية؛ فالقائد الحقيقي لا يرى حرجًا في العودة ليكون جنديًا بعد أن كان قائدًا، كما فعل سيدنا خالد بن الوليد عندما عزله عمر بن الخطاب ﷺ عن قيادة الجيش حتى لا يفتن الناس به.

والأخطر من ذلك عندما تكون الروابط الأقوى لتماسك الجماعة هي المصالح النفعية البحتة وليست الفكرة والرسالة، هنا تصبح العلاقة بين القيادة والجند علاقة مقلوبة، بمعنى أن الأتباع هم من يوجهون رأس الهرم على هواهم، ويصبح رأس الهرم خاضعًا يمارس قيادة صورية. في مثل هذه الأوضاع، يصبح السفلة هم من يقودون الأمور، مما يؤدي حتمًا إلى المسار المنحدر، كما يقول الشاعر إبراهيم يازجي:

تعجبَ قومٌ من تأخر حالنا
ولا عجب في حالنا أن تأخرَا

فَمُذ أصبحت أذنابُنا وهي أرؤُسٌ
صرنا بحكم الطبع نمشي إلى الورا

في الصورة الأخرى أيضًا وهي لا تقل خطورة عن الصورة الأولى: القيادة المستبدة التي لا تستشير وتستبد في الأمر فتورد قومها المهالك، وفي القرآن الكريم الصورتان: قيادة امرأة (بلقيس) استشارات قومها، فقادتهم إلى شاطئ الأمان والنجاة حين قالت: ﴿يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، بينما قائد (فرعون) مستبد برأيه على قومه فأوردهم موارد الهلاك قائلاً: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

نماذج قيادية من صحابة رسول الله ﷺ:

رغم أهمية الجانب الأخلاقي والإيماني في القيادة إلا أنه عندما يكون القائد المؤمن ضعيفًا فإن المصلحة تقضي باختيار القوي القادر على حماية المصالح؛ ولهذا كان النبي ﷺ يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم، وقال: (نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد، وسيف من سيوف الله سله الله عز وجل على الكفار

(١) يراجع: البداية والنهاية، الجزء السادس، فصل في تنفيذ جيش أسامة بن زيد.

والمنافقين)[١]، مع أنه أحيانًا قد كان يعمل ما ينكره النبي ﷺ، حتى إنه -مرة- قام ثم رفع يديه إلى السماء وقال: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد)[٢] لما أرسله إلى بني جذيمة فقتلهم وأخذ أموالهم بنوع شبهة ولم يكن يجوز ذلك، وأنكره عليه بعض من معه من الصحابة، حتى وَدَاهم النبي ﷺ وضمِن أموالهم، ومع هذا فما زال يقدمه في إمارة الحرب؛ لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره وفعل ما فعل بنوع تأويل[٣]، وكان أبو ذر رضي الله عنه أصلح منه في الأمانة والصدق، ومع هذا فقد قال له النبي ﷺ: (يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمّرن على اثنين، ولا تولّين مال يتيم)[٤]، وأمّر النبي ﷺ مرةً عمرو بن العاص في غزوة «ذات السلاسل» استعطافًا لأقاربه الذين بعثه إليهم على مَن هم أفضل منه من الصحابة، وأمّر أسامة بن زيد على قيادة الجيش وهو ابن ١٨ سنة ورغم اعتراض البعض على إمارته؛ لأجل طلب ثأر أبيه. كذلك كان يستعمل الرجل لمصلحة راجحة مع أنه قد يكون مع الأمير مَن هو أفضل منه في العلم والإيمان[٥]، ويبقى النموذج الذي قدمه رسول الله ﷺ في القيادة الشاملة هو النموذج الأكمل الذي استحوذ على قلوب الصحابة وعقولهم فاتبعوه في كل ما يأمر به بعد أن يستشيرهم، حتى قال له سعد بن عبادة رضي الله عنه: «لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْك الغِماد لفعلنا»[٦].

وفي دار من دور المدينة المباركة جلس عمر رضي الله عنه إلى جماعة من أصحابه فقال لهم: تمنوا، فقال أحدهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل الله وأتصدق، وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجدًا وجوهرًا فأنفقه في سبيل الله وأتصدق، ثم قال عمر: تمنوا، فقالوا: ما ندري ما نقول يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: «أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان»[٧].

وقد قيل: رحم الله عمر الفاروق، لقد كان خبيرًا بما تقوم عليه الحضارات الحقة، وتنهض به الرسالات الكبيرة، وتحيا به الأمم الهامدة، ويعلم علم اليقين أن زوال الأمم لا يكون بنقص في الأنفس والأموال والثمرات وإنما بذهاب الرجال والقادة الكبار الذين تنهض بنهضتهم الأمة.

خاتمة:

> **إن القادة الكبار هم الركن الشديد الذي تفزع إليه العامة عند حلول الخطوب والمحن وعند تطاول الشدائد والفتن، وإن الحاجة لتشتد إلى هؤلاء أكثر من الحاجة إلى المعادن الثمينة**

إن التاريخ اليوم يعيد علينا السؤال نفسه: كيف لنا أن ننهض من جديد؟ وكيف لنا أن نعود لمسرح التاريخ بعد طول غياب؟ إن هذا السؤال يفرض علينا مواجهة الحقيقة الثابتة وهي أن الأمم والرسالات لا تنهض بلا رجال وقادة كبار يحملون في أرواحهم الغاية السامية والرؤية السامقة، ويتجردون في سبيلها، وينكرون ذواتهم من أجل انتصار فكرتهم؛ فتقوم الأمة بقيامهم فتعلو على الوهن وتستنشق روح البعث.

إن القادة الكبار هم الركن الشديد الذي تفزع إليه العامة عند حلول الخطوب والمحن وعند تطاول الشدائد والفتن، وإن الحاجة لتشتد إلى هؤلاء أكثر من الحاجة إلى المعادن الثمينة.

إن القادة الكبار أعز من كل معدن نفيس، وأغلى من كل جوهر ثمين، ولذلك كان وجوده عزيزًا في دنيا الناس، حتى قال رسول الله ﷺ: (إنما الناس كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة)[٨]، والرجل الكفء الصالح هو إكسير الحياة، وروح النهضات، وعماد الرسالات ومحور الإصلاح؛ فقد ظهر الإسلام بالرجال الذين صاحبوا رسوله فآوَوه وأيدوه وآثروه على أنفسهم فكانوا قادة بجوار قائد عظيم.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٣).
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٣٩).
(٣) ينظر: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية، ص (٢١).
(٤) أخرجه مسلم (١٨٢٦)، قال القرطبي: «أي ضعيفًا عن القيام بما يتعين على الأمير من مراعاة مصالح رعيته الدنيوية والدينية؛ ووجه ضعفه عن ذلك أن الغالب عليه كان الزهد واحتقار الدنيا؛ ومَن هذا حاله لا يعتني بمصالح الدنيا وبأموالها اللذين بمراعاتهما تنتظم مصالح الدين ويتم أمره، وقد كان أبو ذر أفرط في الزهد في الدنيا»، حاشية السيوطي على سنن النسائي (٦/٢٥٥).
(٥) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٨/٢٥٥).
(٦) أخرجه مسلم (١٧٧٩).
(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٠٠٥).
(٨) أخرجه البخاري (٦٤٩٨) ومسلم (٢٥٤٧).

كيف واجه الإسلام التحديات النفسية الحديثة؟

د. محمود حلمي (*)

في عالم مضطرب، تموج فيه النفس البشرية تحت ضغط المادية والتوتر والعزلة الرقمية، يقف الإسلام بمنهجه المتكامل كحصن نفسي راسخ، لا يقدّم حلولاً سطحية، بل يعالج الجذور: بالعقيدة التي تمنح المعنى، وبالعبادات التي تهدّئ القلق، وبالأخلاق التي تزكّي النفس، وبالرؤية التي توازن بين الدنيا والآخرة، إنّه علاجٌ ربانيٌ متكاملٌ، يصنع الطمأنينة من الداخل، ويمنح الإنسان السكينة التي لا تهزّها عواصف العصر.

في لجّة العصر الحديث، حيث تتلاطم أمواج التغيرات المتسارعة على شواطئ النفس البشرية، وحيث يزحف إيقاع الحياة بضراوة تترك الإنسان ملهثًا، ضائعًا في خضم سيل جارف من المعلومات والمؤثرات التي تفوق طاقته على الاستيعاب والتكيف؛ تبرز «التحديات النفسية» لا كقضية هامشية أو مُحصّلة لقلة قليلة من الناس، بل كسِمة غالبة وواقع مؤرق يُخيّم على حياة الكثيرين؛ فالقلق الذي لا يفتر، والتوتر الذي يستوطن النفوس، والإحباط الذي يُلوّن الرؤى بألوان قاتمة، واليأس الذي يُقْعِد عن السعي، والخوف من غدٍ مجهول يتسلل إلى القلوب كالصقيع، وضغط التنافس الذي لا يرحم، والعزلة الخانقة رغم صخب الاتصالات الافتراضية وجِعَة الأجهزة؛ كلها تجليات لأزمة نفسية عميقة تُقَوّض أركان الاستقرار الذاتي والاجتماعي، وتُفقِد الحياة بهجتها ومعناها.

لقد بذل علم النفس الحديث جهودًا مقدرة في فك ألغاز النفس البشرية، وتطوير نظريات وعلاجات تسعى للتخفيف من وطأة هذه التحديات. ومع احترامنا لهذه الجهود، يبقى السؤال الجوهري

(*) كاتب وباحث أكاديمي، أخصائي إرشاد أسري وتربوي.

قائمًا: هل تملك النظريات التي تُجَرّد الإنسان غالبًا من بُعده الروحي وتُغفِل صلته بخالقه ومصيره النهائي القدرةَ على منح السكينة الحقيقية والطمأنينة المستدامة التي تنشدها الروح؟ هل تستطيع المقاربات التي تتعامل مع الأعراض دون الغوص في الجذور الوجودية والقِيَمية للنفس البشرية أن تُلبي حاجاتها الدفينة وتُعالج قلقها العميق الذي يضرب أوتار الكينونة؟

هنا يتجلى الدور الفارق والبناء الشامل للمنهج الإلهي الذي أكرم الله به البشرية في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ فالإسلام ليس مجرد ديانة بمعناها الضيق، ولا هو مجرد طقوس تعبدية تُمارس بمعزل عن صخب الحياة؛ بل هو «منظومة متكاملة» و«نظام حياة» شامل، يخاطب الإنسان بكليته: عقله، وروحه، وجسده، ونفسه، وعلاقاته، وواقعه، يهدف إلى بناء إنسان سوي، متوازن، نافع، مُستخلف في الأرض على بصيرة. وفي قلب هذه المنظومة تكمن «العقائد» التي تُشكّل الأساس المتين، و«الأخلاق» التي تُبنى عليها السلوكيات والتفاعلات، و«الأفكار والتصورات» التي تُكوِّن رؤية الإنسان عن نفسه، عن الكون، عن الحياة، وعن خالقه. هذه المنظومة بكليتها تُقدم للمسلم حصنًا منيعًا ودواءً ناجعًا في مواجهة التحديات النفسية الحديثة، ليس بمُسكنات مؤقتة أو آليات تكيف قشرية، بل ببناء «حصانة داخلية» متينة، تُثمر «سكينة» لا تُزعزعها الخطوب، و«يقينًا» لا تُضعفه تقلبات الزمان والمكان.

> **الأزمة النفسية المعاصرة ليست وليدة فراغ، بل هي نتاج تراكم عوامل وأسباب عميقة، من أبرزها: طغيان الماديّة وغياب الغاية الكبرى من الوجود، والإدمان على الهواتف ووسائل التواصل الاجتماعي وما تحمله من تزييف للواقع، وضغط التنافس والفردانية المُفرطة، والتعرض المستمر للأخبار السلبية والأزمات مع الشعور بالعجز عن فعل شيء إزاءها**

أولاً/ نظرة في أسباب ومنشأ الأزمات النفسية الحديثة:

قبل الحديث عن العلاج، لا بد من الوقوف على الداء.

إن الأزمة النفسية المعاصرة ليست وليدة فراغ، بل هي نتاج تراكم عوامل وأسباب عميقة تضرب في صميم بنية المجتمع الحديث ونمط الحياة السائد فيه، ومن أبرز هذه الأسباب التي يُمكن للمنظومة الإسلامية أن تُقدم إزاءها معالجة أو مساعدة:

١. **طغيان المادية وغياب الغاية الكبرى:** في عصر يُمَجّد فيه النجاح المادي والاستهلاك السريع، وتُقاس قيمة الإنسان بما يملك لا بما يُقدم أو بما هو عليه؛ يفقد الكثيرون الشعور بالغاية السامية لوجودهم؛ يصبح الركض وراء المال والمكانة الاجتماعية هدفًا نهائيًا يُوَلّد قلقًا مُزمنًا من الفشل، ويُحدِث فراغًا روحيًا هائلاً، كما أن غياب المفهوم الحقيقي للإيمان بالله وغاية تحقيق رضاه، وتجاهل أن الحياة تنتهي بالموت؛ يُوَلّد إحساسًا عبثيًا بالحياة ويُغذي مشاعر اليأس واللاجدوى عند مواجهة الصعوبات أو عند فقدان مُكتسبات الدنيا.

٢. **ثورة الاتصالات وتزييف الواقع:** على الرغم من أن وسائل التواصل الاجتماعي والهواتف الذكية قد قرّبت المسافات ظاهرًا، إلا أنها ساهمت في ظهور مفارقات عجيبة؛ فالتكنولوجيا الرقمية تتستر على «عزلة» نفسية حقيقية، وأصبح لمتابعة الشاشات نوعٌ من الإدمان الذي يُشتت الذهن، ويُقلل من التواصل الإنساني الحقيقي وجهًا لوجه، ويُغذي ثقافة المقارنة المستمرة من خلال استعراض حياة الآخرين المُنمّقة (وغالبًا المزيّفة) على هذه المنصات، هذا يُوَلّد شعورًا دائمًا بالنقص، والحسد، والخوف من فوات زينة الدنيا، ويُقلل من الرضا بالحال، ويهدر الأوقات التي يُمكن استثمارها في بناء الذات والعلاقات الحقيقية أو في العبادة والتفكر. إدمان هذه الوسائل يُصبح بذاته مشكلة نفسية تزيد من القلق والتوتر وضعف التركيز.

٣. **ضغط التنافس والفردانية المُفرطة:** يدفع المجتمع الحديث الأفراد إلى سباق لا يتوقف نحو النجاح والتميز في كل شيء (المهنة، الدراسة، المظهر، العلاقات). هذا الضغط المستمر، وغياب مفهوم «الرزق المقسوم» و«التوفيق من الله» و«التعاون على البر والتقوى»، يُوَلّد شعورًا دائمًا بالتهديد، والخوف من الفشل، ويُضعف روابط التكافل والتعاضد التي تُشكل شبكة أمان نفسي للفرد. الفردانية المفرطة تجعل الإنسان يشعر

بأنه وحيد في مواجهة تحديات الحياة، بينما حاجته الفطرية للمجتمع والدعم تتزايد.

٤. **التعرض المستمر للأخبار السلبية والأزمات:** في عالم مُتصل على مدار الساعة، يجد الإنسان نفسه مُحاطًا بكم هائل من الأخبار المزعجة عن حروب، كوارث، أزمات اقتصادية، وجرائم. هذا التعرض المُستمر، مع الشعور بالعجز عن فعل شيء إزاءها يُوَلّد شعورًا دائمًا بالتهديد، والقلق العام، واليأس من إمكانية تغيير الواقع نحو الأفضل.

هذه ليست سوى أمثلة قليلة، لكنها تُبين أن الأزمة النفسية الحديثة متجذرة في نمط حياة وتصورات عن الوجود غالبًا ما تكون مُغايرة للفطرة السوية أو مُتعارضة معها.

> **على الرغم من أن وسائل التواصل الاجتماعي قد قرّبت المسافات ظاهرًا، إلا أنها ساهمت في ظهور مفارقات عجيبة؛ فالتكنولوجيا الرقمية تتستر على «عزلة» نفسية حقيقية، وأصبح لمتابعة الشاشات نوعٌ من الإدمان الذي يُشتت الذهن، ويُقلل من التواصل الإنساني الحقيقي وجهًا لوجه، ويُغذي ثقافة المقارنة المستمرة من خلال استعراض حياة الآخرين المُنمّقة (وغالبًا المزيّفة)**

ثانيًا/ العقيدة والعبادات.. صخرة الإيمان في بحر القلق:

إن أول وأقوى حصن تُقَدّمه المنظومة الإسلامية في وجه التحديات النفسية هو: «العقيدة» الصحيحة؛ فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ليس مجرد قناعات نظرية، بل هو قِوَام الوجود النفسي للإنسان ومصدر أساسي لاستقراره.

١. **التوحيد:** حين يُوقِن الإنسان أن لهذا الكون خالقًا واحدًا، قادرًا على كل شيء، رحيمًا بعباده، عليمًا بكل خافية؛ يتحرر قلبه من عبودية المخلوق التي تُوَلّد القلق والذل. فبدلاً من التعلق المَرَضي بالوظيفة، أو المال، أو رضا الناس، أو الأجهزة الإلكترونية كمصادر للسعادة والأمن (وهي مصادر مُتقلّبة تَجلب خيبة الأمل والقلق)؛ يصبح تعلّقه الأساسي بالله تعالى مصدر القوة والعطاء الحقيقي. هذا التحرر هو بحد ذاته شفاء عميق للنفس من الكثير من مخاوفها وهواجسها. معرفة الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى: (الرحمن، الرحيم، اللطيف، الرزاق، الشافي، القوي، الجبار) تُورِث النفس طمأنينة وتُشعرها بأنها مُستنِدة إلى ركن شديد لا يميل ولا يزول. كذلك فإن معرفة الخالق تعالى تعطي للحياة معنى قيم. يقول الطبيب النفسي النمساوي «فيكتور فرانكل»: «الافتقار إلى معنى للحياة هو أحد المحركات المركزية للاكتئاب، والإنسان لا يستطيع تحمّل الفراغ الوجودي طويلاً دون أن يظهر عليه عرضٌ نفسيّ ما»[(١)].

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، هذه الآيات تُشكّل أعظم مُخَرّج للنفس من متاهات القلق والتشتت، بتوحيد جهة الاعتماد وكمال اللجوء.

٢. **الإيمان بالقدر:** إن التسليم بأن كل ما يحدث في الكون هو بتقدير الله وعلمه وحكمته البالغة، لا يعني الجبرية أو القعود عن العمل، بل يعني أن القلب بعد بذل الأسباب المشروعة يسلم النتائج لـمُدبّر الأمر كله. هذا الإيمان يُحرر النفس من عبء قلق النتائج الذي يُثقل كاهل الكثيرين في العصر الحديث؛ فالخوف من الفشل، والندم على ما فات، والقلق المفرط على المستقبل، كلها تتلاشى أو تضعف أمام اليقين بأن ما أصابك لم يكن ليُخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وأن الله تعالى قد كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]. هذه الآية تُبيّن بوضوح كيف أن الإيمان بالقدر يُشَكّل أساسًا نفسيًا متينًا لمواجهة المصائب والتقلبات (كي لا تأسوا على ما فاتكم)، ولضبط النفس عند حصول النعم (ولا تفرحوا بما آتاكم)؛ مما يُحقق توازنًا نفسيًا عظيمًا.

(١) البحث عن معنى للحياة، لفيكتور فرانكل، ص (١١٣).

٣. **الإيمان باليوم الآخر:** الإيمان بالحياة بعد الموت، بالجزاء والحساب، بالجنة والنار، يُعطي للحياة الدنيا معناها الحقيقي كـ «مزرعة للآخرة» و«دار ابتلاء وامتحان». هذا التصور يُعيد ترتيب الأولويات ويُخفف من هول المصائب الدنيوية ومُغريات الحياة الفانية؛ فالمسلم يعلم أن ما ينتظره عند ربه من نعيم مقيم، أو ما يخشاه من عذاب أليم، أعظم وأبقى بكثير مما يمر به في الدنيا. هذا الإيمان يزرع الأمل العميق في النفس حتى في أحلك الظروف، ويُعين على تجاوز الألم النفسي الناتج عن الفقدان، أو الظلم، أو عدم تحقيق الأهداف الدنيوية؛ لأن الجزاء الأوفى والعدالة المطلقة هناك.

قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، هذا الفهم لحقيقة الدنيا وعلاقته بالآخرة هو أساس نفسي عميق للتخفف من ضغوط الحياة ومقارناتها التي تُولّد الكثير من التحديات النفسية المعاصرة.

ولا تنفصل العقيدة الإيمانية بالتأكيد عن السلوكيات التعبدية؛ فالعبادات مثل الصلاة والصيام والذكر هي جزء أصيل لا ينفصل عن أساس العقيدة التي يبنى عليها أساس الإيمان، فيتكاملان معًا لتدعيم النفس البشرية في كل ما قد يواجهها من تحديات على اختلافها، يقول عالم الأعصاب «أندرو نيوبرغ» في كتابه «كيف يغيّر الله دماغك»: «أظهرت دراسات الدماغ أن تكرار الأذكار أو الأدعية يؤدي إلى تقليل نشاط مناطق الدماغ المرتبطة بالقلق، ويزيد من الاستقرار الانفعالي»[(١)]، وفي مثال آخر يقول «مارك ماتسون»: «الصوم المنتظم (حتى لو ليومين في الأسبوع) يُحدث تأثيرًا ملحوظًا في ضبط التوتر، وتحسين المزاج، وزيادة التركيز العقلي، وتقليل نوبات الغضب»[(٢)]، وتتفق تلك الحقيقة مع أن الشعائر التعبدية بين العبد وربه هي بالتأكيد من أقوى دعائم النفس ضد التحديات النفسية والمادية كذلك.

> **يقول عالم الأعصاب «أندرو نيوبرغ» في كتابه «كيف يغيّر الله دماغك»: «أظهرت دراسات الدماغ أن تكرار الأذكار أو الأدعية يؤدي إلى تقليل نشاط مناطق الدماغ المرتبطة بالقلق، ويزيد من الاستقرار الانفعالي»**

ثالثًا/ الأخلاق.. بناء النفس السوية من الداخل:

إذا كانت العقيدة هي الأساس الراسخ، فالأخلاق هي البناء الذي يُقام عليه صرح النفس السوية المتوازنة. الأخلاق الإسلامية ليست مجرد سلوكيات ظاهرية، بل هي قيم مُتجذرة في القلب تُثمر أفعالاً على أرض الواقع. ومن أبرزها ما يُشكّل مُعالجة مُباشرة للتحديات النفسية:

١. **الصبر:** الصبر ليس مجرد تحمل سلبي، بل هو حبس النفس على ما تكره ابتغاء مرضاة الله، وهو شجاعة داخلية ورباطة جأش في مواجهة البلاء. الصبر ضروري لطاعة الله (كأداء العبادات التي قد تثقل على النفس في زمن الكسل، أو طلب العلم الذي يحتاج مجاهدة)، وكذلك الصبر عن معصية الله (وهو شديد الأهمية في زمن الشهوات الـمُباحة عبر الشاشات وغيرها، ويُعالج إدمان النظر، وإدمان المتابعة، وإدمان طلب الإعجابات والرضا من الآخرين)، والصبر على أقدار الله المؤلمة (كمرض، أو فقدان، أو فشل مادي، أو ضغوط اجتماعية). الصبر يُعزز قوة الإرادة التي تضعف في زمن الإغراءات السهلة، ويُعلم النفس كيفية التعافي بعد السقوط، ويُقلل من ردود الفعل الانفعالية السلبية كالتسخط والجزع التي تزيد من وطأة المشكلات النفسية.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، الاستعانة بالصبر والصلاة هي الوصفة الربانية لتجاوز الصعاب النفسية والواقعية.

وفي الحديث الشريف، يقول النبي ﷺ: (عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)[(٣)]. يربط

(١) كيف يغيّر الله دماغك، لأندرو نيوبرغ، ص (٧٠-٧٢).
(٢) التحول الأيضي المتقطع، اللدونة العصبية وصحة الدماغ، لمارك ماتسون وآخرين، مجلة نيتشر ريفيوز لعلوم الأعصاب، المجلد ١٩، ٢٠١٨، ص (٦٣-٨٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

الحديث بين الصبر عند الضراء وتحقق الخيرية للمؤمن، وهذا يُوَلّد القوة النفسية لمواجهة الشدائد.

وفي القرآن الكريم وردت قصة نبي الله أيوب عليه السلام، لتبين ابتلاء الله تعالى له في صحته وماله وأهله، فصبر صبرًا عظيمًا، ولم يجزع ولم يسخط على قضاء ربه، بل ظل يذكر الله ويثني عليه، حتى كان مضرب المثل في الصبر، قال تعالى واصفًا صبره: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، صبر أيوب لم يكن ضعفًا، بل كان قوة نفسية هائلة، ويقينًا مطلقًا بأن ما عند الله خير وأبقى، وأن البلاء مقدر من حكيم عليم، وأن الفرج آتٍ لا محالة بعد الصبر الجميل.

فالصبر بالتأكيد يفيد الإنسان عند الشعور بالتوتر والقلق من المستقبل مثل (قلق الامتحانات، قلق العمل، قلق الأزمات)، مع استحضار أن هذا من أقدار الله التي تحتاج إلى صبر جميل مقرون بالعمل والأخذ بالأسباب.

وعند مواجهة خيبة أمل أو إحباط (فشل في مشروع، فقدان عزيز)، تذكر أن هذه الحياة دار ابتلاء، وأن الجزع لا يرد فائتًا ولا يغير واقعًا، وأن الصبر هو مفتاح الفرج وأن بعد العسر يسرًا.

٢. **التوكل:** وهو صدق اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع فعل الأسباب، وهو ليس كسلاً، بل هو قمة العمل القلبي المقرون بالعمل الجسدي في زمن يُثقل فيه التفكير الـمُفرط بالمستقبل وكثرةً الاحتمالات المخيفة كاهلَ النفس، فيأتي التوكل ليُعلّم المؤمن أن عليه أن يبذل ما في وسعه، ثم يُسلّم النتائج لله الذي يملك مقاليد الأمور كلها، هذا التسليم يمنح القلب راحة هائلة ويُزيل عنه عبء الشعور بالمسؤولية المطلقة عن نتائج هي في حقيقة الأمر خارجة عن إرادته الكاملة. التوكل يُعالج بشكل مباشر قلق المستقبل، قلق الرزق، والخوف من الفشل، لأنه يربط القلب بالقوي القادر الذي لا يعجزه شيء.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، «فهو حَسبه»: أي كافيه؛ هذه الكفاية الربانية هي أعظم بلسم لنفس تُعاني من القلق والضعف.

ومن أبلغ الأمثلة: توكل النبي ﷺ وأبي بكر وهما في الغار والمشركون على مقربة، قال أبو بكر: «يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا»، فقال النبي ﷺ بيقين المتوكل: (يا أبا بكر، ما ظَنُّكَ باثنين اللهُ ثالثُهما؟)[١]. هذا التوكل لم يمنع الأخذ بالأسباب (دخول الغار، استئجار الدليل)، لكنه منحهم السكينة المطلقة في أشد لحظات الخطر.

ومن أمثلة التوكل في القرآن: قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام عندما ألقاه قومه في النار، لحظةٌ عصيبة وموقفٌ مهيب لا يملك فيه الإنسان إلا التوكل على خالقه، وعندما سأله جبريل عليه السلام: «ألك حاجة؟» قال إبراهيم: «أما إليك فلا، وأما إلى الله فحسبي الله ونعم الوكيل»[٢]. هذا التوكل الصادق لم يكن قعودًا؛ فقد فعل إبراهيم كل ما يستطيعه قبل ذلك في الدعوة والحوار، ولكنه عند غلبة الأسباب المادية لجأ إلى خالق الأسباب، فكانت النتيجة: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فالتوكل مهم عند الشعور بالضغط من كثرة المسؤوليات والأعباء، أو عند الخوف من الفشل في مشروع أو دراسة، أو حتى عند تعرض القلب للمخاوف المتعلقة بالرزق، الصحة، أو أي أمر مستقبلي؛ فيجب أن يقوم الإنسان بما يجب عليه من أسباب، ويدعو الله، ويتيقن بأن الله لن يُضيعه ما دام مستقيمًا على أمره.

٣. **الرضا:** الرضا بالقضاء والقدر هو تتويج لمقامات الصبر والتوكل، هو حالة قلبية رفيعة يجعل المؤمن يتقبل ما قضاه الله عليه بعد فعل الأسباب بنفس مطمئنة، عالـمًا أن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه، وأن وراء كل قدر حكمة بالغة يعلمها الله. الرضا يُحرر النفس من أسر الندم على الماضي، ومن عذاب الحسرة على ما لم يتحقق، ومن سموم الحسد على ما لدى الآخرين، هو يُعلّم النفس القناعة بما قسم الله، والشكر على الموجود لا الجزع على المفقود، إنه يُحول النقمة إلى نعمة، والألم إلى أجر،

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

(٢) أخرج البخاري (٤٥٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «{حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}».

والتحدي إلى فرصة للتقرب إلى الله، إنه الدواء الأعظم لمشاعر النقص، والمقارنة السلبية، والإحباط المزمن. يقول «هارولد كوينغ» أستاذ الطب النفسي: «المرضى ذوو الإيمان العميق يتعافون بشكل أسرع من الاكتئاب، وتكون لديهم استجابات أقوى للعلاج، مقارنة بالمرضى غير المتدينين»[1].

ويتماشى ذلك مع قول الله تعالى في وصف حال المؤمنين المتقين: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، بعد قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، فقولهم: «إنا لله وإنا إليه راجعون» هو قمة الرضا والتسليم الذي يُثمر صلوات ورحمة وهداية من الله.

> **الأخلاق تبني النفس السوية من الداخل، فالصبر يُعزز قوة الإرادة ويُعلم النفس التعافي بعد السقوط ويُقلل من الانفعالات السلبية، والتوكل يُعلّم التسليم لله بعد فعل الأسباب مما يمنح القلب راحة هائلة من القلق والخوف من الفشل، والرضا هو الدواء الأعظم لمشاعر النقص والمقارنة السلبية والإحباط المزمن، والشكر يزيد النعم ويُرسخها ويُوَلّد في النفس حالة من الامتنان والرضا**

٤. **الشكر:** الشكر هو الاعتراف بنعم الله باطنًا (بالقلب) وظاهرًا (باللسان والجوارح) واستخدامها فيما يُرضيه. في زمن يُركز فيه الإعلام والنزعة الاستهلاكية على ما يَنقص الإنسان لا على ما يملك؛ يصبح الشكر دواءً ناجعًا لمشاعر النقص وعدم الرضا التي تُغذي الكثير من المشكلات النفسية، استحضار نعم الله التي لا تُحصى (الصحة، الأمن، الأهل، فرص العمل، القدرة على العبادة) يُوَلّد في النفس حالة من الامتنان تُبدد ظلمات التسخط والجحود والحسد، الشكر يزيد النعم ويُرسخها، وهو بحد ذاته عبادة تُقوي الصلة بالله وتُشعر المؤمن بمعيته وعنايته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، والوعد بالزيادة هنا لا يقتصر على الماديات، بل يشمل الزيادة في الطمأنينة والبركة والسكينة.

رابعًا/ الأفكار والتصورات.. بناء عقل مُحصّن ونفس مُستنيرة:

تُشكّل الأفكار والتصورات التي يُقدّمها الإسلام عن الكون والحياة والإنسان عنصرًا حيويًا في بناء المناعة النفسية ومواجهة التحديات، هذه التصورات تُقدم إطارًا معرفيًا يُفسر الواقع ويُعين على فهمه والتعامل معه.

١. **الحياة الدنيا دار ابتلاء:** التصور الإسلامي للحياة الدنيا بأنها «دار ابتلاء» وليست «دار جزاء» أو «دار استمتاع محض» يُغير نظرة الإنسان للتحديات والصعوبات؛ فالمحن لا تُصبح مُجرد «مشاكل» أو «عقبات» تُثير القلق واليأس، بل تُصبح «ابتلاءات» و«اختبارات» من الله، تحمل في طياتها فرصًا لرفع الدرجات، وتكفير السيئات، واكتشاف مكامن القوة في النفس، والتقرب إلى الخالق بالدعاء والصبر واللجوء إليه. هذا التصور يُحول الألم النفسي إلى دافع إيجابي نحو العمل الصالح والتحمل والتوكل.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ١-٢]، الآية تُصرّح بأن غاية خلق الحياة والموت هي الابتلاء.

٢. **المجتمع المسلم بناء مُتراص:** في زمن تُعاني فيه النفوس من العزلة والشعور بالوحدة رغم الازدحام، يُقدم الإسلام تصورًا عن المجتمع كبناء مُتراص أساسه الأخوّة الإيمانية والتكافل الاجتماعي: المساجد، مجالس العلم والذكر، الزيارات الأسرية، صلة الرحم، تفقّد الجيران، التعاون على البر والتقوى، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برفق وحكمة؛ كلها آليات تُشكّل شبكة أمان نفسي واجتماعي قوية. والشعور بأن هناك من يسندك، وينصحك، ويدعمك، ويُشاركك همومك وأفراحك، ويُعينك على الطاعة ويُبعدك عن المعصية؛ يُقلل كثيرًا من وطأة الضغوط النفسية ويُعالج الشعور بالعزلة.

(١) الدين، الروحانية، والصحة: البحث والتطبيقات السريرية، هارولد كوينغ، مجلة ISRN للطب النفسي، ٢٠١٢م.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، هذه الأخوة ليست مجرد كلمة، بل هي رابطة عقدية تُلزم بحقوق وواجبات مُتبادلة تُعزز التماسك الاجتماعي والنفسي.

وفي الحديث، يقول النبي ﷺ: (مَثَلُ المؤمنين في تَوادِّهِم وتَرَاحُمِهم وتعاطُفِهم كَمَثَلِ الجسدِ؛ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعَى له سائرُ الجسدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى)[1]، هذا التصوير يُجسد الترابط العضوي بين أفراد المجتمع المسلم ودوره في الدعم النفسي المتبادل.

خامسًا/ التكامل الضروري بين الهدي الشرعي والتطبيق العصري:

إن المنظومة الإسلامية التي تشمل العقيدة والأخلاق والأفكار تُقدم إطارًا نظريًا وتطبيقيًا قويًا جدًا لمواجهة التحديات النفسية الحديثة، لكن هل هذا يُغني عن الاستفادة مما توصل إليه علم النفس الحديث؟ الجواب من منظور شمولي وتكاملي هو: أن الهدي الشرعي هو الأساس والـمُوجّه والوقود الروحي والنفسي الأعمق، بينما يُمكن لعلوم النفس والاجتماع الحديثة أن تُقدم أدوات تشخيصية وتطبيقية وإرشادية تُعين على تطبيق هذا الهدي الشرعي في سياقات الحياة المعاصرة وفهم الآليات النفسية والسلوكية الدقيقة التي تُساهم في المشكلات وتُساعد في حلها.

مثلاً، في مسألة إدمان استخدام الهاتف ووسائل التواصل، تُقدم المنظومة الإسلامية العلاج الجذري عبر:

- **العقيدة:** التذكير بأن الوقت نعمة سيسأل عنها العبد يوم القيامة، وأن إضاعة العمر فيما لا يُفيد لا يُرضي الله.
- **الأخلاق:** تفعيل خلق «الصبر» في كبح جماح النفس عن تصفح لا ينتهي، وتطبيق «المراقبة» (أن تعبد الله كأنك تراه) حتى في استخدام الهاتف، و«الشكر» على نعمة الوقت باستغلاله فيما يُفيد.
- **الأفكار:** تغيير التصور بأن القيمة تأتي من عدد المتابعين أو الإعجابات، وأنّ القيمة الحقيقية تكون برضا الله والعمل الصالح.

> **إن السكينة والطمأنينة النفسية التي ينشدها إنسان العصر المضطرب ليست سلعة تُباع وتُشترى، ولا هي نتيجة لظروف خارجية مثالية قلّما تتحقق، إنها ثمرة عمل داخلي، وجهاد مستمر، وبناء واعٍ للنفس على أسس متينة تُقدمها منظومة الإسلام المتكاملة: عقيدةٌ راسخة تُجيب على الأسئلة الوجودية الكبرى وتُوَحّد القصد والغاية، وأخلاقٌ فاضلة تُقَوّم السلوك وتُهَذّب النفس وتُعزز الإرادة، وتصوراتٌ عن الكون والحياة تمنح المعنى وتُقدم إطارًا لفهم الابتلاء والتعامل معه**

في الختام.. سكينة لا تُمنح، بل تُكتسب:

إن السكينة والطمأنينة النفسية التي ينشدها إنسان العصر المضطرب ليست سلعة تُباع وتُشترى، ولا هي نتيجة لظروف خارجية مثالية قلّما تتحقق، إنها ثمرة عمل داخلي، وجهاد مستمر، وبناء واعٍ للنفس على أسس متينة، هذه الأسس تُقدمها منظومة الإسلام المتكاملة: عقيدةٌ راسخة تُجيب على الأسئلة الوجودية الكبرى وتُوَحّد القصد والغاية، وأخلاقٌ فاضلة تُقَوّم السلوك وتُهَذّب النفس وتُعزز الإرادة، وتصوراتٌ عن الكون والحياة تمنح المعنى وتُقدم إطارًا لفهم الابتلاء والتعامل معه.

حين يتشبث المسلم بعقيدته، ويتخلّق بأخلاق قرآنه، ويستنير بتصورات هديه، ويُعمِل عقله في فهم واقعه مستعينًا بما تيسر من أدوات العصر التي لا تُعارض شرعه، ساعيًا للتكامل بين الهدى الرباني والمعرفة الإنسانية؛ حينئذٍ يجد السكينة الحقيقية التي لا تهتز أمام عواصف الحياة. يطمئن قلبه بذكر الله، ويُسلم أمره للقوي القادر بعد بذل الجهد، ويرضى بقضاء الله وقدره، ويُصبح حصنًا منيعًا في وجه التحديات النفسية التي تفتك بغيره.

إن العودة الصادقة إلى منابع الوحي، وفهمها بعمق، وتطبيقها بحكمة، هو الطريق الأقوم لبناء النفس المسلمة القوية الواثقة المطمئنة في زمن الاضطراب، عندها فقط يتحقق وعد الله الحق: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨][2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، واللفظ لمسلم.

(٢) وقد اقتصرت في هذا المقال على الاستشهاد بأقوال علماء النفس الغربيين الذين لا يدينون بالإسلام، وهم مع دينهم المحرّف يجدون أثرًا لهذا الدين على النفس، فكيف بدين التوحيد الخالص؟!

الإدارة في السيرة النبوية: نموذج ملهم عبر العصور

أ. عائشة جلال الأصفر (*)

هل كان انتصار الدعوة الإسلامية في مهدها وبلوغها للآفاق نتيجة لمعجزات خارقة للعادات؟ أم كان وفق سنن التمكين ومداولة الأيام وصعود الأمم وفق قانون السببية؟ وللإجابة عن هذا السؤال نحن بحاجة إلى دراسة سيرة النبي ﷺ والنظر في الأدوات والأساليب التي استخدمها في قيادة أصحابه، وفي وضع اللبنات الأساسية للأمة، واستخلاص طريقته في الإدارة والقيادة، وهذا ما يحاول المقال تناوله وعرضه.

مدخل[1]:

تشكل السيرة النبوية مصدرًا ثريًا للدروس الإدارية والقيادية التي تتسم بالحكمة والبصيرة، وتوازن بين القيم الإنسانية ومتطلبات القيادة الفعّالة، حيث استطاع محمد ﷺ من خلال نهجه الفريد بناء مجتمع متماسك ودولة متقدمة في زمن مليء بالتحديات والصراعات ووسط ظروف سياسية واجتماعية معقدة. لم يكن نجاحه في القيادة نتاج سلطة أو موارد ضخمة، بل نتيجة لأسلوبه المتميز في الشورى وتوزيع المسؤوليات والمهام، ولم تقتصر إدارته على توجيه الأفراد وتنظيم العلاقات، بل امتدت لتشمل التخطيط طويل المدى والتعامل المرن مع المتغيرات، وإرساء قواعد الإدارة التي تعلي من قيمة الإنسان وتبنيه وتضع مصلحة المجتمع على رأس الأولويات؛ مما جعله نموذجًا يحتذى به في الإدارة الناجحة.

لقد كان النبي ﷺ مؤيدًا بالوحي، وجانب من تصرفاته وقراراته كانت بالوحي، لكن شخصيته كانت عظيمة بما فيها من حكمة فريدة وشخصية قيادية، مكنته من تحويل مجتمع صغير متناحر تسوده العادات الجاهلية إلى قوة مؤثرة في المنطقة. والمقال يتناول جانب شخصية الرسول

(*) ماجستير في العلوم، كاتبة وباحثة.

(١) بعض أفكار المقال مستفادة من مبحث: إستراتيجيات الإدارة في السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد بكر - المشرف العام على أكاديمية السيرة المستنيرة.

ﷺ القيادية، ويعكس منهجُه الإداري في الحُكم والتنظيم صفاتِ القائد المثالي الذي يجمع بين الحزم في الحق والرحمة في المعاملة. وهذا ما يجعلنا نتعمق أكثر في الاستراتيجيات التي طبقها الرسول ﷺ لنتمكن من تفعيلها في مجتمعنا اليوم.

وجماع المشاكل التي تتخبط فيها مجتمعاتنا المعاصرة يكمن في غياب التطبيق الفعلي لمنهج الإدارة الرشيد، الذي يقوم على الشورى والتخصص والعدل وتحمل المسؤولية، الذي لو عاد لأمكن علاج كثير من أزمات الإدارة والتخطيط والحوكمة في واقعنا العربي والإسلامي.

إنّ دراسة الجانب الإداري في حياة النبي ﷺ ليست استذكارًا لتاريخ مشرق فحسب، بل هي إلهام لنا في بناء مجتمعات قادرة على مواجهة تحديات العصر بحكمة ونزاهة.

> **جماع المشاكل التي تتخبط فيها مجتمعاتنا المعاصرة يكمن في غياب التطبيق الفعلي لمنهج الإدارة الرشيد، الذي يقوم على الشورى والتخصص والعدل وتحمل المسؤولية، الذي لو عاد لأمكن علاج كثير من أزمات الإدارة والتخطيط والحوكمة في واقعنا العربي والإسلامي**

أبرز الوظائف الإدارية النبوية:

إن وظائف الإدارة تكمن في التخطيط الفعال والتنظيم ومتابعة المكلفين بالمهام ومراقبتهم لغاية تحفيز المنجز ومعاقبة المقصّر، وقد مارس النبي ﷺ هذه الوظائف من خلال مواقف متعددة شهدتها كتب السيرة، ومن ذلك:

١. التخطيط:

أظهر النبي ﷺ فهمًا عميقًا لأهمية الاستعداد المسبق ورسم الأهداف الواضحة لتحقيق النجاح في شتى مجالات الحياة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك: التخطيط للهجرة النبوية، التي مثلت نقلة نوعية في الدعوة الإسلامية وبناء الدولة، فقد اتخذ ﷺ كافة التدابير اللازمة لضمان نجاح هذه الخطوة، حيث خطط للطريق فاختار الطريق المعاكسة للهدف لتضليل العدو، واختار الصحبة، وتأكد من توفير الحماية والتمويه عبر الاستعانة بأشخاص موثوقين، مثل عبدالله بن أبي بكر وعامر بن فهيرة، وأعد لكل مرحلة استراتيجية محكمة.

كما يظهر التخطيط في غزواته ﷺ؛ فقد كان يدرس موقع المعركة ويضع الخطط المناسبة للظروف المحيطة، كما حدث في غزوة بدر حين استفاد من مصادر المعلومات وأماكن المياه، ووضع خططًا تكتيكية محكمة أدت لتحقيق النصر رغم قلة العدد والعتاد.

ومن أروع الشواهد على حكمته ﷺ وبُعد نظره الإداري: أنه -رغم كونه مؤيَّدًا من الله وموحىً إليه- لم يكتفِ بذلك، بل كان يأخذ بالأسباب، ويُقدّر رأي أهل الخبرة، ويقرّهم على التفريق بين ما هو وحي وما هو اجتهاد بشري منه ﷺ، ويتجلى ذلك في موقفه من الحباب بن المنذر ﷺ في غزوة بدر، حين سأله الحُباب: «أمنزل أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟»، فلما علم أن الموقع لم يكن بوحي، عرض الحباب رأيه العسكري، فاستجاب له النبي ﷺ مباشرة وعدّل موقع الجيش[١].

هذا الموقف يؤكد أن القيادة النبوية كانت نموذجًا في الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب، وبين الإيمان بالوحي واحترام العلم والتخصص، وهو ما نفتقده اليوم في كثير من مؤسساتنا وقراراتنا المصيرية، حيث تُطلق مشاريع تطويرية كبرى دون دراسة جدوى واضحة؛ كأن تقوم إحدى المؤسسات الحكومية أو البلدية بإطلاق مشروع لبناء مجمع صناعي أو تجاري كبير في منطقة غير مأهولة أو تفتقر للبنية التحتية؛ وذلك استنادًا إلى رؤى شخصية أو اجتهادات إدارية غير مدروسة دون الرجوع إلى خبراء التخطيط العمراني أو تحليل السوق أو دراسة اقتصادية للموقع؛ فتكون النتيجة فشلاً يتمثّل في: هدر ملايين من المال العام، وعدم إقبال المستثمرين أو المستفيدين، بالإضافة إلى تحميل الدولة أو المؤسسة عبئًا ماليًا وإداريًا جديدًا.

والتخطيط النبوي لم يقتصر على المواجهات العسكرية، بل شمل التنظيم الاجتماعي؛ كتأسيس سوق المدينة لإيجاد استقلال اقتصادي، ووضع وثيقة المدينة وكان ذلك بعد الهجرة، وهذه الوثيقة هي أول دستور مدني مكتوب في التاريخ لتنظيم

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (١٩٢/٢).

العلاقات بين المسلمين والمشركين واليهود في مجتمع المدينة المتعدد الديانات والأعراق، وجاءت هذه الوثيقة لتؤسس قواعد التعايش؛ حيث ضمنت لكل طائفة حريتها الدينية وحقوقها المدنية، فنصّت على أن «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»، كما بيّنت الوثيقة مسؤوليات الدفاع المشترك عن المدينة، ورفض الظلم والتواطؤ مع الأعداء؛ ما يدل على تأسيس دولة على قواعد العدالة والمؤسسات، لا على العصبية أو التفرد بالرأي.

ومن أبرز المواقف التي رافقت صياغة الوثيقة أن النبي ﷺ جمع ممثلين عن هذه الفئات، وأقرّوا معه البنود التي تنص على أن «المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس»، كما نصّت على أن «اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»[1]، مما يعكس روح التعددية والمواطنة.

وقد التزم النبي ﷺ ببنود هذه الوثيقة عمليًا؛ فحين اعتدى بنو قينقاع على امرأة مسلمة وخرقوا بنود الصحيفة، لم يتحرك إلا بعد الحوار والتثبت، فلما تبيّن خرقهم للاتفاقية اتخذ إجراءً حازمًا، مما يثبت أن الصحيفة لم تكن حبرًا على ورق، بل عقدًا مُلزِمًا يضمن الحقوق وينظم الواجبات.

وهكذا كانت وثيقة المدينة بمثابة حجر الزاوية وأول تجربة حقيقية لبناء دولة تقوم على الشورى، واحترام التعدد، وربطت بين الأمن الجماعي والعدالة؛ إذ منحت الاستقرار الداخلي، ومهدت لانتقال المسلمين من جماعة مضطهدة إلى كيان سياسي مستقل يحظى بالاعتراف الداخلي والخارجي. وكانت ممارسة عملية للإدارة السياسية القائمة على التعاقد، واحترام التنوع، وتحديد الحقوق والواجبات بوضوح، في سابقة لم تشهدها الجزيرة العربية في ذلك الوقت؛ حيث كان اليهود يحتكرون السوق الاقتصادي في المدينة ويثيرون الفتن بين الأوس والخزرج لضمان استمرار وجودهم وسيطرتهم على المنطقة وثرواتها.

يُجسد هذا التخطيط الرؤية الاستباقية للنبي ﷺ، مما يُبرز أهمية التخطيط الاستراتيجي الناتج عن تحليل عميق للبيئة في جزء أساسي من منهج القيادة والإدارة النبوية للأمور، فقد أدرك ﷺ منذ اللحظة الأولى لدخوله المدينة أهمية وضع الحدود والبنود ليضمن حماية الحقوق واستتباب الأمن في المدينة، ولعل أشد ما ينقص مجتمعاتنا اليوم هو هذه الرؤية الاستباقية قبل مباغتة العدو لنا، فشتان بين أمة تكون على أتم الاستعداد وحاضرة للمواجهة في أي وقت على كافة الأصعدة، وبين أمة مغيبة همها تأمين قوت اليوم ولا تكترث بما يعد لها عدوها.

أظهر النبي ﷺ فهمًا عميقًا لأهمية الاستعداد المسبق ورسم الأهداف الواضحة لتحقيق النجاح، بالتخطيط للهجرة النبوية وللغزوات، والتنظيم الاجتماعي؛ كتأسيس سوق المدينة، ووضع وثيقة للتعايش بين سكانها، وهذا يُبرز أهمية التخطيط الاستراتيجي الناتج عن تحليل البيئة في جزء أساسي من منهج القيادة والإدارة النبوية للأمور

٢. اختيار الكفاءات وتوزيع المهام:

كان ﷺ يعرف أصحابه وما يتميزون به؛ فلم يكن ليكلف أحدهم مهمة لا تناسبه، ولم يكن هناك إقصاء لأحد وإنما كل له دوره ومكانه في الدولة، وكان ﷺ يحسن اختيار الرجل المناسب للمهمة المناسبة، فقد اختار دحية الكلبي ليكون رسولاً إلى الأمصار لجمال خلقته وحسن منطقه ولمعرفته بعادات القوم، وكلف أبا بكر بإمامة الناس في مرضه، وقال عنه: (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر) فهو رقيق القلب واسع الحكمة ومع ذلك قوي في مواطن الحسم؛ فكان خير من يحمل أمانة الخلافة من بعده. وأوكل إلى عمر بن الخطاب شؤون القضاء والفتوى أحيانًا لما عرف عنه من موافقة الوحي لرأيه حتى قال فيه: (لو كانَ نبيٌّ بعدي لكان عمر)[2]، واختار حذيفة أمينًا لسره واختاره ليأتي بخبر القوم في أشد الغزوات صعوبة على أصحابه التي وصف حالهم القرآن: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾، واختار عليًا ليحمل الراية في غزوة خيبر من دون أصحابه[3]، وبعثه إلى اليمن للقضاء؛ لحكمته وعمق فهمه، وقد شهد له النبي

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (١٠٦/٢).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٨٦).
(٣) ينظر: مسند أحمد (٧٧٨).

ﷺ بتفوقه في ذلك فقال: (وأقضاهم علي) واختار معاذ بن جبل داعيًا لأهل اليمن لأنه شاب فقيه ذكي حسن البيان وواسع الفهم فقال فيه: (أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ)، واختار خالد بن الوليد ليكون قائدًا في المعارك، وقد سار على نهجه الخلفاء من بعده؛ فقدمه أبو بكر ليكون قائدًا لمعركة اليمامة في حرب المرتدين. ولو بحثنا في إمكانيات كل صحابي وتلمسنا جوانب شخصياتهم وأنماطهم البشرية لوجدنا دقة هائلة في الاختيار[١].

٣. المتابعة والمراقبة:

فلم يكتفِ النبي ﷺ بتفويض المهام وتوزيعها، بل كان يتابع الموكلين بإنجاز المهام حتى يتموها على أكمل وجه فيكافئهم، لقد كانت القيادة النبوية تتجاوز مجرد إصدار الأوامر إلى بناء الإنسان، وتحفيز النفوس، وتكريم أصحاب الجهد والسبق.

فكان النبي ﷺ يثبّت أصحاب الفضل بكلمات خالدة، أو هدايا عينية تُشعرهم بمكانتهم وتزيدهم ثباتًا وعطاء. فهذا أبو بكر الصديق الذي بذل ماله كله في سبيل الله يقول فيه النبي ﷺ: (ما نَفعني مالُ أحدٍ قط ما نفعني مالُ أبي بكر)[٢]، ليضعه في موضع الصديق الأوفى، ويقرّ له بفضل لم يقرّه لغيره. وذاك بلال بن رباح الصادح بكلمة «أحد أحد» تحت العذاب على رمضاء مكة يكرمه النبي ﷺ بأن يقف شامخًا فوق الكعبة ليؤذن للمسلمين بصوته الشجي يوم فتح مكة[٣]. أما ابن عباس فقد نال منه دعوة: (اللهم فقهّه في الدين وعلّمه التأويل)[٤]، لتتحوّل هذه الدعوة إلى مفتاح علمٍ جعله إمام التفسير وعمدة العلماء.

وفي الميدان العسكري لم يغب التكريم؛ فالزبير ابن العوام يُكرّمه النبي ﷺ بلقب خالدٍ: (حواريّ الزبير)[٥]، أي ناصري وصفيّي، ليبقى في وجدان الأمة حاضرًا. ويأتي سعد بن أبي وقاص في لحظة اشتداد القتال، فيخصّه النبي ﷺ بقولٍ لم يُقل لأحد غيره: (ارمِ فداك أبي وأمي)[٦]، وهو أعلى درجات التقدير الشخصي والعاطفي في ثقافة العرب، ومن المكافآت العينية ما حدث مع عبد الله بن أنيس حيث أهداه عصا تكون بينهما علامة يوم القيامة[٧]، وبذلك نجد التنوع حاضرًا في طرق تحفيز النبي ﷺ لأصحابه فهي ليست مادية فحسب، بل كانت كلمات خالدة تُحفَظ وتُروى، تصنع القدوة وتُعلي من قيمة التضحية، وتبني رجالاً حملوا الرسالة وبلّغوها إلى العالمين.

في المقابل كان ﷺ يرشد المقصر منهم ويعاقبه إن لزم الأمر، وهنا وقفة ينبغي التنبه لها عند معاقبة المقصرين، فإن كانوا أخلّوا بعمل عظيم وإيمانهم قوي ولكن ضعفت أنفسهم في لحظةٍ ما فيمكن إيقاع عقوبة قاسية تردعهم عن تكرار ما حصل، كما في موقفه ﷺ مع كعب بن مالك وصاحبيه ﷺ حين تخلفوا عن غزوة تبوك، فلم يكن تشديد العقوبة عليهم على سبيل الإهانة أو النبذ، بل كان مؤسسًا على جملة من المقاصد التربوية العميقة؛ أولها: أن خطأ الراسخ في الإيمان له وقع مضاعف على المجتمع؛ إذ إن العامة يقتدون به، وميله عن الطاعة في ظرف حرج كغزوة تبوك قد يُفهم على أنه تهاون مشروع. كما أن تغليظ العقوبة في هذا السياق جاء تأكيدًا على أن أوقات الشدة تستدعي من أهل الإيمان أعلى درجات الالتزام، لا التراخي، وأن القيادة لا يمكن أن تسمح بالاستثناء في مواطن التكاليف العامة، حتى مع أقرب الناس منزلة. ومن جهة أخرى، فإن هذا التشديد شكّل حاجزًا نفسيًا وأخلاقيًا بين صف الإيمان وصف النفاق؛ فالمنافقون اعتذروا كذبًا وقُبل منهم ظاهرًا، أما الصادقون فاعترفوا دون مواربة، فكان في ذلك امتحان رباني يُميز به الصادقين من الكاذبين، ويطهّر به صف المؤمنين من شوائب التردد والتكاسل.

بل إن هذا الامتحان -وإن بدا عقوبة- فهو في حقيقته تربية ربانية أرادت رفع درجاتهم، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ

(١) روى ابن ماجه (١٥٤) عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٩٠).

(٣) الطبقات الكبرى (١٢٧/٢).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٢٢٣)، وأصله في صحيح البخاري (٧٥) و(١٤٣).

(٥) أخرجه البخاري (٢٨٤٧).

(٦) أخرجه البخاري (٢٩٠٥).

(٧) ينظر: مسند الإمام أحمد (١٦٠٤٧).

الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]. كما أن الموقف بأكمله شكّل قاعدة راسخة في السيرة النبوية مفادها أن المكانة لا تعني الحصانة من المحاسبة، بل توجب مزيدًا من المسؤولية والانضباط، وأن العدل يسري على الجميع دون تمييز، ليكون ذلك درسًا خالدًا للأمة في فقه القيادة والانضباط، والصبر على البلاء، والصدق في التوبة. لكن إن كانوا من المؤلفة قلوبهم فينبغي التعامل مع الأمر بحذر حتى لا تتفاقم المشكلة وتجعلهم يرتكبون منكرًا أعظم من المنكر الذي فعلوه؛ لذلك كان المنهج النبوي يتسم بالموازنة بين المؤلفة قلوبهم وراسخي الإيمان؛ فكعب بن مالك جاءته رسالة من ملك الروم يدعوه فيها إلى التخلي عن دين محمد وأغراه بالمال والهدايا بسبب أمر الرسول ﷺ بمقاطعته ٥٠ يومًا، فلم يكن منه إلا أن قطع الرسالة واعتبرها امتحانًا من الله له، ولم يزده ذلك إلا صدقًا وصلابة وحبًا للرسول ﷺ وانتظار الفرج من الله[١].

لم يكتفِ النبي ﷺ بتفويض المهام وتوزيعها على الكفاءات، بل كان يتابع الموكلين بإنجاز المهام حتى يتموها على أكمل وجه فيكافئهم، ويتابع المقصرين ويرشدهم ويعاقبهم إن لزم الأمر: لقد كانت القيادة النبوية تتجاوز مجرد إصدار الأوامر إلى بناء الإنسان، وتحفيز النفوس، وتكريم أصحاب الجهد والسبق

أنواع الإدارة في السيرة النبوية:

هنا بعض أنواع الإدارة التي مارسها النبي ﷺ حسب التصنيفات المعاصرة للمصطلحات:

إدارة الذات:

وهي القدرة على تنظيم الفرد لأفكاره ومشاعره ووقته من أجل تحقيق أهدافه بكفاءة. فكان ﷺ ينظم وقته بدقة؛ فيخصص وقتًا للعبادة ووقتًا لتعليم أصحابه ووقتًا لقضاء حوائج الناس ووقتًا لأهله، فرغم أنه كان قائدًا للأمة إلا أنه لم يهمل الجوانب الأخرى في حياته، وعندما بالغ بعض الصحابة في العبادة لدرجة إهمال حقوق أنفسهم وأهليهم كما في قصة سلمان مع أبي الدرداء الذي كان يصوم النهار ويقوم الليل ولا حاجة له في الدنيا، فعندما أنكر عليه سلمان ذلك وقال مقولته الشهيرة: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه»؛ أقره الرسول ﷺ وقال: (صدق سلمان)[٢]؛ لأنها أوجزت التوازن المطلوب الذي أمر به الإسلام[٣].

الإدارة بالإنجاز:

وهو أسلوب يعتمد على تحقيق الأهداف والنتائج الفعلية بدلاً من التركيز على الإجراءات، ويتجلى ذلك في قصة: (لا يصلين أحدٌ العصر إلا في بني قريظة)[٤]، فقد قبل النبي ﷺ ممن صلاها في الطريق وممن صلاها عند وصوله لأسوار بني قريظة، فالهدف قد تحقق وهو الوصول إلى بني قريظة والإسراع في حربها، والجميع صلى العصر سواء في الطريق أو عند بني قريظة؛ لذا تجاوز النبي ﷺ التفاصيل هنا وركز على النتيجة النهائية. وهذا يقودنا إلى صفة مهمة نفتقدها اليوم في أنظمتنا الإدارية التي تولي الاهتمام بالتفاصيل المفرطة والتي تؤدي في كثير من الأحيان إلى تعطيل إنجاز المهمة على الوجه المطلوب.

إدارة الموارد المالية:

وهي عملية تخطيط وتنظيم وتوجيه ومراقبة الموارد المالية المتاحة لتحقيق أهداف معينة بفعالية وكفاءة، تشمل هذه الإدارة: تحديد طرق الحصول على الأموال، وكيفية تخصيصها وتوزيعها على الأنشطة المختلفة، ومراقبة الاستخدام لضمان تحقيق الأهداف بأقل تكلفة وأعلى مردود. وأحد الأمثلة الأكثر وضوحًا في السيرة هو طريقة توزيع الغنائم في كل غزوة بصورة تختلف عن غيرها من الغزوات؛ ففي غزوة حنين كان النصيب الأكبر من الغنائم لصالح كسب المؤلفة قلوبهم، ومن الأمثلة كذلك: فدية إطلاق أسرى المشركين بعد غزوة بدر؛ فالنبي ﷺ لم يفرض فدية واحدة على الجميع، بل جعلها بحسب حال الأسير وأهله. كما أن النبي ﷺ وضع نظامًا لتدوير المال بين أفراد المجتمع؛

(١) ينظر: قصة كعب وصاحبيه رضي الله عنهم في صحيح مسلم (٢٧٦٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٦٨).
(٣) وإدارة الوقت هي جزء من إدارة الذات، ولكن بسبب أهمية الوقت وسهولة ضياعه أفرد علماء الإدارة له مصطلحًا منفصلاً فقالوا: إدارة الذات، وقالوا: إدارة الوقت.
(٤) أخرجه البخاري (٩٤٦).

فوضع نظامًا لجمع الزكاة والصدقات من الأغنياء وتوزيعها على المستحقين، وكمثال معاصر على عدم إدارة الموارد المالية بكفاءة ما نراه من بناء مدارس حديثة بتكاليف باهظة دون موازاة ذلك باستثمار حقيقي في تأهيل المعلمين، أو تطوير المناهج أو تحسين جودة التعليم؛ فيكون التركيز على الشكل لا المضمون، فتزيد بذلك الفجوة بين ما يرى في الواقع من بنية جميلة وما يتحقق فعليًا من تعليم حقيقي، فالكفاءة المالية وحسن إدارة الموارد المالية في التعليم يعني توجيه الإنفاق إلى ما يُحدث فرقًا في جودة التعليم.

إدارة الأزمات:

ونعني بها اتخاذ الإجراءات المناسبة للتعامل مع الأزمات المفاجئة أو المحتملة والتي يمكن أن تؤثر بشكل سلبي على المجتمع، لذا فإن الهدف منها هو تقليل الأضرار الناتجة عن الأزمة واستعادة الاستقرار. وقد حدث ذلك جليًا في حادثة الإفك، حيث كان الرسول ﷺ حكيمًا في تعامله مع زوجته عائشة؛ فلم يتهمها ولم يعنفها وإنما استشار العقلاء في أمرها، ووعظها موعظة تنم عن ثقافة التسامح التي يتمتع بها ديننا الحنيف مهما كان الذنب فقال لها: (أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه)[1] وطلب منها أن تبيت عند أهلها حيث كانت مريضة، وحتى يتريث في الحكم على الأمر، وهذه الخطوة في غاية الأهمية حتى تستقر النفوس ولا يتهور الرجل خصوصًا إذا اتهم في عرضه فقد يقوم بفعل لا تحمد عقباه ثم يتبين كذب المفتري.

> **أدرك النبي ﷺ أن اليهود الذين نكثوا العهد وغدروا في أحلك لحظات الحصار لا يمكن تركهم شوكة في خاصرة الدولة الناشئة. فأظهر وعيًا عسكريًا فذًا، وبادر إلى محاصرتهم واستئصال فتنتهم، في درس نبوي واضح: أن النصر لا يُهدر، والفرص لا تُترك، وخيانة الداخل أشد خطرًا من عدوان الخارج**

إدارة الفرص:

وهي عملية تحديد واستكشاف وتقييم واستغلال الفرص المحتملة التي يمكن أن تحقق قيمة إضافية أو فائدة للمجتمع، فبعد أن انقشع غبار غزوة الأحزاب، وانهزم التحالف الوثني من دون أن يحقق هدفه، لم يُمهل الوحي النبي ﷺ طويلاً؛ إذ جاءه جبريل -عليه السلام- كما في الصحيحين يقول له: (قد وضعتَ السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم، قال: فإلى أين؟ قال: ها هنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم)[2]، كان هذا التوجيه الإلهي تنبيهًا استراتيجيًا بالغ الأهمية؛ فاليهود الذين نكثوا العهد وغدروا في أحلك لحظات الحصار لا يمكن تركهم شوكة في خاصرة الدولة الناشئة. هنا أظهر النبي ﷺ وعيًا عسكريًا فذًا، فبادر مباشرة إلى محاصرتهم واستئصال فتنتهم، في درس نبوي واضح: أن النصر لا يُهدر، والفرص لا تُترك، وخيانة الداخل أشد خطرًا من عدوان الخارج.

وقد انعكست هذه الخبرة النبوية لاحقًا في موقفه ﷺ من صلح الحديبية؛ فحين غدرت قريش وحلفاؤها ببني خزاعة لم يتردد النبي ﷺ في اعتبار ذلك نقضًا عمليًا للعهد، واستثمر الموقف كما استثمر نصر الأحزاب، فتحرك مباشرة لفتح مكة دون قتال، مستفيدًا من تراكم الخبرات السياسية والعسكرية، وعاقدًا العزم هذه المرة على إنهاء عهد الغدر والتهديد المستمر، وبناء سلام على قواعد القوة لا على أوهام الوعود؛ وبذلك ينهي النبي ﷺ التزامه بصلح الحديبية الذي كان يحوي بنودًا مجحفة بحق المسلمين.

إدارة ردود الأفعال:

وهي عملية تنظيمية تهدف إلى التفاعل الفعال مع ردود الأفعال تجاه أحداث أو مواقف معينة، سواء كانت إيجابية أو سلبية، ولنا في قصة «امحها يا علي» خير شاهد على تحكم الرسول ﷺ بردود أفعاله؛ فعندما كتب علي بن أبي طالب في صحيفة صلح الحديبية «محمد رسول الله» واعترض سهيل بن عمرو على كلمة «رسول الله» وقال كلمته: «لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت»!! فأجاب الرسول ﷺ على الفور وقال: (امح «رسول الله») فرفض علي ذلك ليس إعراضًا عن امتثال أمر

(١) أخرجه البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠).
(٢) أخرجه البخاري (٤١١٧) ومسلم (١٧٦٩).

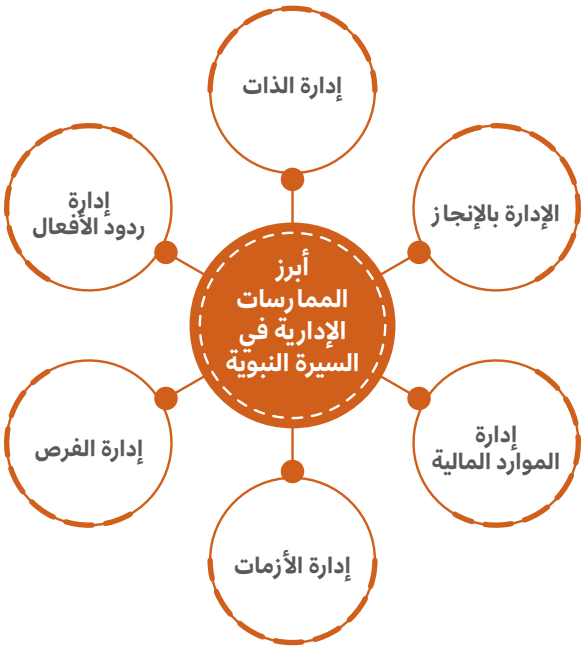

الرسول ﷺ، ولكن بغضًا لكلام الكافر الذي لم يكتفِ بتكذيب الرسالة المحمدية، بل وإنكارها على الملأ، فما كان منه ﷺ إلا أن محاها بنفسه[1]، وهذا من أقوى صور ضبط الانفعال في مثل هذه المواقف.

بناء الاستراتيجيات المناسبة للواقع:

لفتة أخيرة تبين المنهج النبوي الإداري في فقه ودراسة الواقع ووضع استراتيجيات مناسبة له في العهد المكي والمدني.

حيث ركز النبي ﷺ في العهد المكي على العقيدة وتثبيتها في النفوس وتحمل العذاب والتضحية في سبيل الدعوة؛ فعندما أتى أحدهم وقال له: «ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟» كان جوابه ﷺ: (قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه)[2]. أما في العهد المدني فالرسول ﷺ بادر بالدعاء لأصحابه بالنصر في غزوة بدر وقال: (اللهم إن تهلك هذه العصبة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض)[3]. فبعد أن بنى النبي ﷺ أولاً قاعدة صلبة في نفوس أصحابه وعقيدة راسخة بأنّ طريق الدعوة محفوف بالابتلاءات وأن عليهم المضي فيه بصبر وثبات؛ ظهر المشهد الثاني في المدينة عندما دعا بالنصر لهم في غزوة بدر حتى لا تستنزف طاقات هذه الثلة المؤمنة ويخسرها المجتمع الإسلامي في بداية طريق الدعوة؛ فما زالت الأحكام التشريعية لم تكتمل بعد.

> **بعد أن بنى النبي ﷺ قاعدة صلبة في نفوس أصحابه وعقيدة راسخة بأنّ طريق الدعوة محفوف بالابتلاءات وأن عليهم المضي فيه بصبر وثبات؛ ظهر المشهد الثاني في المدينة عندما دعا بالنصر لهم في غزوة بدر حتى لا تستنزف طاقات هذه الثلة المؤمنة ويخسرها المجتمع الإسلامي في بداية طريق الدعوة**

وختامًا:

فإن السيرة النبوية تعد مرجعًا خالدًا يعكس قدرة الإسلام على تقديم حلول إدارية تتسم بالشمولية والإنسانية، وما علينا سوى التعمق في هذه المواقف وتحليلها لنعكس نتائجها على واقعنا فنتغير كما غير النبي ﷺ مجتمع الجزيرة العربية.

(١) ينظر: صحيح البخاري (٢٦٩٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦٩٤٣).
(٣) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

قراءة في كتاب: «النظريات الأمنيّة وتطبيقاتها في العالم العربي» للدكتور بشير زين العابدين

أ. أحمد أرسلان (*)

يقدّم الكتاب تحليلاً نقديًا وعميقًا لمفاهيم الأمن في السياق العربي، موضحًا كيف تحوّلت السياسات الأمنية من حماية الإنسان إلى تأمين الأنظمة، ويقترح بديلاً يقوم على أمن إنساني تشاركي. يناقش النظريات العالمية، ويكشف إخفاقات تطبيقها في العالم العربي دون مراعاة السياق، داعيًا لبناء منظومة أمنية عربية تراعي الهوية، والخصوصية، وتعتمد على الشفافية والمجتمع المدني.

المؤلف:

باحث وأكاديمي سوري، حاصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن عام ١٩٩٩م، وعلى شهادة البكالوريوس من الجامعة نفسها عام ١٩٩٣م. متخصص في التاريخ السياسي للعالم العربي، وله العديد من الكتب والأبحاث المحكّمة والمقالات في الشؤون الإستراتيجية لمنطقة الخليج والمشرق العربي وتاريخ مصر.

مؤسس ومدير «المرصد الإستراتيجي (٢٠١٥-٢٠٢٣م)» الذي صدرت عنه العديد من الأوراق البحثية والدراسات والتقارير، من أبرزها: «التقرير الإستراتيجي السوري». وهو أيضًا مؤسس مركز «شارك» الشبابي الإلكتروني (٢٠١٧-٢٠٢٣م) الذي أنجز سلسلة من الإصدارات العلمية، ونظّم عددًا من الفعاليات والدورات.

(*) مدوِّن، ومتخصص في صناعة المحتوى والإنتاج الإعلامي.

وصف الكتاب:

الكتاب من إصدار مركز «شارك» الشبابي، يقع في ٢٩٨ صفحة، وصدرت الطبعة الأولى منه عام ٢٠٢٣م.

ويتألف من ثلاثة فصول، وعددٍ من الفهارس والرسوم والجداول التي تخدم مادة الكتاب وتقرّبها للقارئ:

- **الفصل الأول:** النظريات الأمنية (عرض موسع لأبرز النظريات الأمنية من بداية ظهورها وحتى آخر مراحل تطورها).
- **الفصل الثاني:** الأمن العربي المعاصر (تقييم للنظريات الأمنية وعرض لإخفاقات استيراد هذه التطبيقات في العالم العربي دون مراعاة خصوصية مجتمعاته).
- **الفصل الثالث:** تطبيقات الأمن الإقليمي (مقترحات لبناء منظومة أمنية جديدة تأخذ بعين الاعتبار هشاشة النظم القائمة وتعقيد المجتمعات).

موضوع الكتاب:

يقدّم الكتاب الذي بين أيدينا إجابة وافية عن أسئلة غاية في الأهمّية في موضوع الأمن: هل الأمن هو حماية الدولة أم تأمين الإنسان؟ ومن يملك الحق في تعريف الخطر: الدولة أم المجتمع أم الخارج؟

ومن خلال ذلك يساهم في نشر الثقافة الأمنية، ويصوّب الانحرافات المفاهيمية والتطبيقية التي طرأت في الثقافة العربية في هذا الموضوع، ويقدم نماذج تطبيقية يمكن الاستئناس بها لإعادة صياغة المعادلة الأمنية العربية فيما يحقق الاستقرار، ويعزز فرص التنمية، ويحمي الحريات العامة، ويصون الكرامة الإنسانية بدلاً من انتهاكها، كل ذلك بعبارة ميسرة للقارئ المبتدئ، أو غير المتخصص في مجال الأمن[١].

فالكتاب لا يكتفي بمهمة الشرح، بل يسعى إلى إعادة تفكيك المفاهيم الأمنية الموروثة، وتوطينها عربيًا، من خلال عرض النظريات الأمنية وتطبيقها على الواقع العربي، ومِن ثمَّ عرض تطبيقات معاصرة.

عرض الكتاب:

بدأ المؤلف بتعريف لفظ «الأمن»، وأنَّ استخدامه في العلاقات الدولية يعود إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، ويقصد به: «حالة الإحساس بالثقة والطمأنينة بوجود ملاذ من الخطر، ويتمثّل الموقف المترتب على الحاجة إلى الأمان، ويرتبط بخاصية العدوانية لدى الإنسان»، ثمَّ يذكر مشكلة التعريف الاصطلاحي ويذكر عِدَّة تعاريف، ثمَّ يخلص إلى أنّ ظاهرة غياب التعريف الجامع تعود إلى كون حقل الدراسات الأمنية لا يزال جديدًا ويواجه تحديات في طريق التأسيس بصفته حقلاً معرفيًا مستقلاً.

الفصل الأول/ النظريات الأمنية - من فلسفة البقاء إلى أمن الإنسان:

ينطلق هذا الفصل من حقيقة صادمة وبسيطة وهي: أنّ العالم اليوم يعيش تطورًا متسارعًا في فهم الأمن، ليس فقط كممارسة سياسية أو عسكرية، بل كعلم قائم بذاته، له مدارسه ومناهجه ونظرياته، يتطور جيلاً بعد جيل، ويعاد فيه تعريف التهديد والمصالح والفاعلين.

وفي المقابل، يقف العالم العربي شبه غائب عن هذا السباق، فنحن لا نشارك في إنتاج النظريات الأمنية، ولا حتى في استيعابها.

وفي الوقت الذي بات فيه الأمن مجالاً معرفيًا مركّبًا في الجامعات ومراكز الأبحاث؛ لا يزال تعاملنا معه بدائيًا، مرتبطًا بمفاهيم السيطرة والقوة الصلبة، وخاضعًا لإرث من التسييس والاستبداد.

والمفارقة أنّ المنطقة العربية من أكثر مناطق العالم اضطرابًا أمنيًا: فنحن الأكثر تورطًا في الحروب، والأكثر استيرادًا للسلاح، والأكثر تعرضًا للتدخل، وفي الوقت نفسه الأقل قدرة على فهم «ما هو الأمن؟» وكيف يُبنى؟

هذا الفصل لا يعرض فقط النظريات الأمنية كما ظهرت في الغرب، بل يكشف من خلالها كمّ التخلف النظري الذي نعيشه، ويطرح السؤال المؤلم:

كيف تكون أكثر شعوب الأرض حاجة إلى الأمن، وأقلها فهمًا له؟

(١) من التعريف بالكتاب على الغلاف الخلفي.

يقول المؤلف: «تغيب المنهجية عن الدراسات الأمنية العربية، وتغيب معها القدرة على فهم المفهوم نفسه، أو تبيئته، أو حتى نقده؛ فتتحول المقاربات الأمنية في عالمنا العربي إلى ردود فعل ظرفية، لا تنطلق من فهم مركّب ولا تنتهي إلى حلول مستدامة».

١- نشأة وتطور الدراسات الأمنية:

يبدأ المؤلف من جذور الموضوع، مشيرًا إلى أن الدراسات الأمنية وُلدت من رحم العلاقات الدولية، لكنها ما لبثت أن تشعبت. في البداية كان «الأمن» يعني شيئًا واحدًا: أمن الدولة من الحرب والعدوان الخارجي، لكن مع الوقت تشظّى المفهوم ليشمل أبعادًا غير عسكرية: الأمن الاقتصادي، والغذائي، والصحي، وحتى الثقافي.

يعرض المؤلف ثلاث مراحل في تطور الحقل الأمني:

- المرحلة التقليدية: (قبل الحرب العالمية الثانية: حيث كان الأمن مرادفًا للسيادة والحروب).
- المرحلة الحديثة: (الحرب الباردة: حيث ظهرت توازنات الرعب والنظريات الواقعية).
- مرحلة ما بعد الحرب الباردة: (حيث توسعت أجندة الأمن لتشمل الإنسان، لا الدولة فقط).

٢- المناهج الكلاسيكية: من الفلسفة إلى المقارنة:

في هذا القسم يستعرض المؤلف المناهج الفكرية التي أسهمت في تشكيل الدراسات الأمنية:

- المنهج المثالي: مستمد من أفلاطون، ويرى أن الأمن يتحقق بوجود حاكم فاضل.
- المنهج التاريخي: ويدعو لفهم الأمن من خلال السياقات الزمنية والدروس السابقة.
- المنهج القانوني: ويربط الأمن بالنظام القانوني والمؤسسات الشرعية.
- المنهج الراديكالي: يقوم على النظرية الاجتماعية لماركس، ويُسلط الضوء على علاقة الأمن بالسلطة والاقتصاد.
- المنهج السوسيولوجي: الذي يركز على البُعد المجتمعي والهويات، فيعمد إلى تحليل الأحداث السياسية من منظور اجتماعي.
- المنهج القياسي: وذلك مِن خلال قياس الحالات السياسية في الدول من خلال صورة الفرد.
- المنهج الاستقرائي: يعتمد على استقراء الواقع السياسي على ضوء الحقائق القائمة للحصول على نتائج علمية يمكن تعميمها.

هذه المناهج -رغم اختلافها- توفر عدسة متعددة الزوايا لفهم «الأمن»، تتجاوز العسكرة والحدود.

> **الدراسات الأمنية وُلدت من رحم العلاقات الدولية، لكنها ما لبثت أن تشعَّبت. في البداية كان «الأمن» يعني شيئًا واحدًا: أمن الدولة من الحرب والعدوان الخارجي، لكن مع الوقت، تشظّى المفهوم ليشمل أبعادًا غير عسكرية: الأمن الاقتصادي، والغذائي، والصحي، وحتى الثقافي**

٣- النظريات الأمنية الكبرى التي تشكلت من خلال الدول الكبرى: الواقعية، الليبرالية، البنائية:

» النظرية الواقعية: الصراع دائم، والدولة مركز الكون:

وفق المدرسة الواقعية فإنَّ الفرد عدواني بالدرجة الأولى، ويسعى للحصول على السلطة، والأفراد ينتظمون في دول تعمل كلٌ منها بشكل مستقل، وتسعى للهيمنة على الدول الأخرى، فلذلك تسعى لحيازة أكبر قدرٍ من القوة بهدف التفوق على خصومها. فالأمن يعني القوة، والعالم محكوم بالفوضى، فالعلاقات الدولية تعجّ بالفوضى، والدولة هي الفاعل الوحيد، ولا أمان إلا بتفوق عسكري، فيجب أن تعتمد على نفسها.

يشير المؤلف إلى عدة تيارات تعمل من خلال النظرية الواقعية، مثل:

- الواقعية الكلاسيكية: الإنسان شرير بالطبيعة.
- الواقعية الجديدة (كينيث والتز): الفوضى الدولية هي سبب الصراع، لا الطبيعة البشرية.
- الواقعية الهجومية (مير شامير): لا سبيل للأمن إلا بالهيمنة.
- الواقعية الدفاعية: ترى أنَّ الدول ليست عدوانية في طبيعتها، وأن توازن القوى كاف للردع.

» النظرية الليبرالية: التعاون ممكن:

وهي تنطلق من افتراض أن الفاعلين غير الدوليين (منظمات، مجتمع مدني، شركات) لهم دور، والأمن يتحقق بالقانون، والمؤسسات، والتعاون الاقتصادي. لكن هذه المدرسة -كما يذكر المؤلف- تلقت انتقادات شديدة، خصوصًا من فوكوياما نفسه؛ الذي دعا إلى تعميم الليبرالية بالقوة، وتفكيك سيادة الدول الضعيفة، لكن التجربة أثبتت فشل النموذج الليبرالي في العراق وأفغانستان.

يشير المؤلف إلى دعوة فوكوياما في كتابه الثقة إلى عولمة الليبرالية بالقسر! وحاول من خلال ذلك تبرير تدخلات قسرية شوهت صورة التحول الديمقراطي.

» النظرية البنائية: الأمن خيال اجتماعي:

وهي تقوم على اعتبار أنَّ الأفراد يعطون المعنى للبنى السياسية والأمنية.

البنائية تؤمن بأن التهديد ليس موضوعيًا، بل ناتج عن تصورات جماعية، وأنّ الأمن مسألة هوية وخطاب. وتعتبر البنائية أنَّ مصدر القوة يكمن في العوامل غير المادية والتي تحقق الأمن (الصورة الوطنية- التأييد الشعبي- القيادة)، ولذلك يجب أن يبحث في التكوينات المجتمعية وربطها بالتفاعلات الدولية وبتحولات الفكر والقيم لتحليل الظواهر الأمنية، يشرح المؤلف أن هذه النظرية فتحت المجال لفهم الصراعات من زاوية (من نحن؟) وليس فقط (ماذا نملك من سلاح؟).

٤- نظرية المباريات: الأمن لعبة استراتيجية:

يولي المؤلف في هذا الفصل عناية خاصة لما يُعرف بنظرية المباريات، باعتبارها أداة لتحليل سلوك الفاعلين في مواقف الصراع أو التعاون.

مع تطور المهددات الأمنية، وتعقدها، وتعدد أطرافها؛ طرأت الحاجة إلى تطبيقات أكثر تطورًا من النظريات الفلسفية، وإلى ضرورة القيام بحسابات دقيقة بدلاً من الاقتصار على الاجتهادات النسبية، ومن أبرز النظريات التي تم استحداثها في هذا المجال؛ «نظرية المباريات» (game theory).

وتُعرّف «نظرية المباريات» بأنها: «طريقة لدراسة صناعة القرار في حالات الصراع، عبر التحليل الرياضي لحالات تضارب المصالح، بغرض الإشارة إلى أفضل الخيارات الممكنة لاتخاذ قرارات في ظل الظروف المعطاة تؤدي إلى الحصول على النتيجة المرغوبة».

وتُعدّ هذه النظرية من أكثر المناهج تطورًا في تحليل التطورات الأمنية، حيث تقوم على افتراض أزمات معينة، وإسناد أدوار محددة لأطرافها، ومن ثم تحليل كافة أبعادها، وصياغة نطاق واسع من القرارات البديلة التي يصلح كل واحد منها لحل أزمة مفترضة أو واقعة بالفعل.

علمًا بأن تطبيقات نظرية «المباريات» لا تقتصر على المعالجة الأمنية فحسب، بل تُستخدم في علوم الاجتماع والاقتصاد، وفي النظريات السياسية والعلوم العسكرية، وتقوم على أساس وجود احتمالات متعددة ومتشعبة، وتتضمن ثلاث خيارات من المصالح، كما في الشكل.

وتقوم المباراة على عشرة عناصر رئيسة هي:

اللاعبون، وأسباب الصراع، والأهداف، والمعلومات المتوفرة، والخيارات المتاحة، والخطة، والإستراتيجية، والعقلانية، والحيلة، والمباراة.

و«في الحالة العربية» غالبًا ما تتحول علاقات التعاون إلى لعبة دجاج قاتلة، حيث يفضّل الطرفان الخسارة الجماعية على «التنازل التكتيكي!»

كما يشير المؤلف إلى أن نظرية المباريات توفّر أدوات لفهم الردع وتوازن القوى، لكنها تتطلب بيئة مؤسسية لا تتوفر غالبًا في الدول العربية.

انتُقد على النظرية كونها أداة غير احترافية للتحليل الأمني، إذ إنها لم توضع في الأصل لمعالجة المهددات الأمنية التي تقوم على واقع يتسم بالفوضى وعدم الانتظام، وينتمي اللاعبون فيه إلى منظومات غير متجانسة من الأفكار والقيم والاتجاهات؛ ما يجعل عملية التنبؤ صعبة للغاية.

وتكمن المشكلة الأكبر في ارتكاز تطبيقات «المباريات» على اعتماد النسبية في القياس، وهو أمر غير دقيق؛ إذ إن الأحداث الدولية والمواقف السياسية لا تتكرر بصورة متطابقة، بل تنشأ مواقف متباينة في كل حالة جديدة وفق متغيرات الظروف المحيطة بها حتى وإن بدت متشابهة.

وبالتالي فإنه لا يمكن الخروج من «اللعبة» بنتائج دقيقة، أو بقوانين ناظمة للعملية السياسية أو الأمنية نظرًا لتعقد المشهد الدولي وتداخله، بل

نظرية "المباريات" تتضمن ثلاثة مصالح

تقوم على أساس وجود احتمالات كثيرة ومتشعبة، وتتضمن ثلاث خيارات من المصالح

هي في أحسن الأحوال تخمينات يمكن الاستئناس بها من قبل الجهة التي تقوم بتطبيقها، مع مراعاة التعامل مع مخرجاتها على أنها احتمالات ذات طابع ترشيدي يساعد على الاختيار بين مختلف السيناريوهات التي تفرزها عملية الصراع، وهي بالتالي عملية تكتيكية أكثر من كونها نظرية تحليلية شاملة.

تُعدّ نظرية المباريات من أكثر المناهج تطورًا في تحليل التطورات الأمنية، حيث تقوم على افتراض أزمات معينة، وإسناد أدوار محددة لأطرافها، ومن ثم تحليل كافة أبعادها، وصياغة نطاق واسع من القرارات البديلة التي يصلح كل واحد منها لحل أزمة مفترضة أو واقعة بالفعل

٥- المدرسة النقدية: نحو أمن تحرري:

ينتقل المؤلف إلى المدرسة النقدية التي انطلقت في الثمانينات والتسعينيات، وتوسعت في ثلاث تيارات، هي:

- مدرسة كوبنهاغن: وترتكز على مفهوم «التسييس» و«الأمننة»، أي كيف يتحول موضوع ما (الهجرة، الدين، البيئة..) إلى تهديد أمني من خلال الخطاب فقط، دون أن يكون خطرًا واقعيًا. وتقترح هذه المدرسة خمس قطاعات للأمن: (العسكري، السياسي، الاقتصادي، المجتمعي، البيئي).
- مدرسة أبريستويث: تدعو إلى تجاوز الدولة تمامًا، وتبني ما يُعرف بالأمن الإنساني الذي يضع الإنسان في المركز، وتؤمن بضرورة تفكيك بنى الهيمنة والخوف المرتبطة بالأجهزة الأمنية.
- المدرسة الباريسية: وتُعنى بدراسة الأجهزة الأمنية كفاعلين مستقلين، ويقسم المؤلف هذه المدرسة إلى:

١. الأجهزة السياسية: والتي تهدف لحماية النظام.
٢. الأجهزة العسكرية: التي تسعى لمواجهة تهديد خارجي.
٣. الأجهزة العقائدية: والتي تخدم أيديولوجيا معينة.
٤. الأجهزة الاجتماعية: ودورها إعادة إنتاج النظام الثقافي والاجتماعي.

مقارنة مفهوم الأمن لدى تيارات المدرسة النقدية

	مدرسة كوبنهاغن	مدرسة أبرستويث	مدرسة باريس
مرجعية مفهوم الأمن	الأمن كفعل كلام	الأمن كانعتاق	الأمن كتقنية حكومية
موضوع التهديد	المجتمع	الفرد	الجماعية السياسية
القيم المهددة	الهوية المجتمعية	حق الأمن للأفراد	النظم المجتمعية
من يقوم بتوفير الأمن	النخبة السياسية	المحلل الأمني	شبكات مهنيي الأمن
كيف يتحقق الأمن	نزع الأمننة	التحرر من التفكير والعمل تحت الظروف الأمنية	تكثيف تقنيات المراقبة وإدارة المخاطر

والجدير بالذكر أنّ «أحد إشكاليات الأمن العربي: أن الأجهزة العقائدية طغت على العسكرية، وأدت إلى عسكرة الحياة المدنية نفسها».

> **إنّ أحد إشكاليات الأمن العربي، أنّ الأجهزة العقائدية طغت على العسكرية، وأدّت إلى عسكرة الحياة المدنية نفسها**

الفصل الثاني/ الأمن العربي - أزمة المعيار والتكوين:

يأخذ هذا الفصل طابعًا نقديًا أكثر مباشرة، حيث يبدأ من تشخيص "أزمة المفهوم"، وينتقل إلى تفكيك بنى الدولة العربية الحديثة، وتحديات الجغرافيا والهوية، لينتهي بتحليل المعضلة الأمنية والثقافة الأمنية الراهنة.

١- أزمة المعيارية الأوروبية:

ينتقد المؤلف محاولات "تعميم" النموذج الأوروبي في الأمن والديمقراطية، فيذكر حالات مثل:

- فشل التحول الديمقراطي بالقوة في العراق وأفغانستان، وذلك عن طريق فرض الديموقراطية الليبرالية الجديدة والتي قامت على أسس واهية، وتحولت الليبرالية إلى وحشية غير مقبولة تمنح نفسها حق نشر المبادئ بالسلاح والقوة، وهذا ما كان له أثر أمني كبير دوليًا، وفوضى في الأمن الدولي في البلاد التي حاولت هذه الدول أن تفرض هيمنتها عليها.
- تحدث المؤلف عن معاهدة "ويستفاليا"، وأنَّ الدراسات الأمنية الحديثة تعتبر هذه المعاهدة (١٦٤٨م) نقطة بداية النظام الدولي الحديث، ونتج عنها: إنهاء الحروب الدينية، وتشكل الدول القومية، وفصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية. وأنَّ هذا النموذج تعرض لنكسات، وعرض للافتراضات التي جعلت هذه المعاهدة بداية نشوء النظام الدولي، ونقدها، وبيَّن عدم صحة ذلك الادعاء.
- إخفاق تصدير نموذج "الدولة الحديثة" إلى ليبيا وسوريا واليمن، ويبيّن المؤلّف أنَّ مفهوم الأمن في هذه الدول قائم على الحفاظ على فئة فقط، وهذه الفئة هي من تمثل الأمن في البلاد.

- تناقضات الاتحاد الأوروبي تجاه اللجوء والهجرة، حيث تبنى خطابًا أمنيًا ضد اللاجئين: "لم تكن المشكلة في أن العرب يرفضون الديمقراطية، بل في أن النماذج المستوردة لم تُبنَ على فهم حقيقي للسياق المحلي".

٢- تشوهات التأسيس والهوية التائهة:

يفصّل المؤلف كيف أن الدول العربية الحديثة نشأت نتيجة اتفاق سايكس – بيكو، وليس نتيجة تطور طبيعي. فالدولة لم تكن تجسيدًا لمجتمع، بل جهازًا مفروضًا، تم اختزال الهوية في حدود ساكنة وجواز سفر، وتحول الأمن إلى مسألة ولاء للنظام، لا حماية للناس، وغيّبت المرجعية الإسلامية لصالح قوميات مصطنعة.

٣- الجغرافيا وأمن الصحراء:

الجغرافيا نفسها تتحول إلى لعنة في بعض السياقات، فالحدود العربية الواسعة رخوة، ومفتوحة. وتُشكّل المناطق الصحراوية الحدودية بيئة خصبة للتهريب والجريمة المنظمة والتدخل الخارجي، يذكر المؤلف أمثلة من ليبيا، ومالي، وسيناء، ومنطقة الحدود العراقية – السورية.

٤- المعضلة الأمنية والحروب العربية:

تُعد "المعضلة الأمنية" من أبرز المفاهيم التي يُفككها المؤلف، وهي الحالة التي تؤدي فيها محاولات دولة لتعزيز أمنها إلى تهديد جيرانها، فتدخل المنطقة في سباق تسلح ودوامات صراع.

ويورد الكتاب إحصائيات صادمة للحروب في الوطن العربي، منها:

- ٨٥٪ من النزاعات المسلحة في الوطن العربي خلال العقود الأخيرة كانت داخلية أو مدفوعة بتدخل خارجي.
- ١٣ دولة عربية شهدت حروبًا أو اضطرابات مسلحة منذ عام ٢٠١٠.
- إنفاق بعض الدول العربية على الأمن تجاوز ٣٥٪ من ميزانيتها العامة دون مردود تنموي. وكلما زاد الإنفاق العسكري زادت هشاشة الداخل؛ لأن الإنفاق لم يوجه لتأمين الإنسان، بل لتحصين الأنظمة.

"تُعد "المعضلة الأمنية" من أبرز المفاهيم التي يُفككها المؤلف، وهي الحالة التي تؤدي فيها محاولات دولة لتعزيز أمنها إلى تهديد جيرانها؛ فتدخل المنطقة في سباق تسلح ودوامات صراع

٥- الوجود العسكري الأجنبي وآثاره:

يناقش المؤلف الأثر العميق للقواعد الأجنبية في دول عربية عدة، ويشير إلى أن هذه القواعد تحولت إلى أدوات لإعادة تشكيل النظام الإقليمي، وأدت إلى تقييد السيادة وتداخل الأمن القومي مع المصالح الغربية، حيث تسهم هذه القواعد في تفتيت المركب الأمني العربي لصالح مركبات بديلة، و"لا يمكن بناء أمن جماعي عربي بوجود أكثر من ٢٥ قاعدة عسكرية أجنبية على أراضينا."

٦- هشاشة المركب الأمني العربي:

المركب الأمني هو النظام الذي يفترض أن يربط دول الإقليم بشبكة مصالح أمنية مشتركة، لكن المؤلف يرى أن هذا المركب هش؛ لأنه قائم على أنظمة لا على مجتمعات، وتُهيمن عليه الخصومات الأيديولوجية بدل الرؤى المشتركة.

٧- الثقافة الأمنية المعاصرة:

في هذا المحور ينتقد المؤلف الثقافة الأمنية في الدول العربية، والتي تقوم على: شخصنة الأجهزة الأمنية وربطها بالنظام الحاكم، إضافة لتغييب الشفافية والمساءلة، وتدريب الأفراد على الطاعة لا التفكير؛ مما يؤدي في النهاية إلى قطيعة بين الأجهزة الأمنية والمجتمع المدني. ويقول: "ما نملكه هو أجهزة ضبط، لا مؤسسات أمن؛ عقيدة أمننا تقوم على الشك لا الوقاية".

٨- تحديات التغيير:

يسرد المؤلف التحديات الكبرى أمام إصلاح القطاع الأمني، ومنها:

- غياب الإرادة السياسية.
- ضعف الكفاءات والنخب.
- الإعاقة البيروقراطية والتشريعية.
- الارتهان للتدخلات الخارجية.

ورغم كل ذلك، يفتح المؤلف الباب للتغيير التدريجي إن تم دمج المجتمعات في التصور الأمني، وتخلي الأنظمة عن احتكار الرواية الأمنية.

في الوطن العربي: ٨٥٪ من النزاعات المسلحة خلال العقود الأخيرة كانت داخلية أو مدفوعة بتدخل خارجي، و١٣ دولة عربية شهدت حروبًا أو اضطرابات مسلحة منذ عام ٢٠١٠، كما أنّ إنفاق بعض الدول العربية على الأمن تجاوز ٣٥٪ من ميزانيتها العامة دون مردود تنموي، وهذا الإنفاق موجّه لتحصين الأنظمة لا لتأمين الإنسان

الفصل الثالث/ من النظرية إلى التطبيق - نحو أمن إقليمي جديد:

ينتقل المؤلف في فصله الثالث إلى تقديم نماذج عملية لبناء أمن عربي متماسك، ينطلق من الخصوصيات، ويستفيد من التجارب العالمية دون أن ينسخها.

١- الخلفية التاريخية للأمن الإقليمي:

يراجع المؤلف محاولات بناء أنظمة أمنية عربية منذ الحرب الباردة، كمعاهدة الدفاع العربي المشترك التي لم تفعّل إلا مرة واحدة، وفشل المحاور السياسية كمحور الصمود أو مجلس التعاون العربي أو تجربة الجامعة العربية التي لم تنتج إطارًا أمنيًا فعالاً؛ وذلك لأنّ "ما يُسمى التعاون الأمني العربي ظل رهينة المزاج السياسي، لا المصالح المشتركة".

٢- مهددات الأمن العربي (المحلي والإقليمي والدولي):

يرسم الكتاب خريطة دقيقة لمهددات الأمن:

- محليًا: الفقر، البطالة، التفكك الأسري، ضعف التعليم.
- إقليميًا: التدخل الإيراني والتركي، النزاعات المزمنة، الصراع العربي – الإسرائيلي.
- دوليًا: الهيمنة الغربية، الحرب على الإرهاب، تغول الشركات الأمنية.

"فلا أمن بلا عدالة اجتماعية؛ ولا استقرار دون مصالحة مع الجغرافيا والتاريخ".

٣- إصلاح قطاع الأمن الوطني:

يُقدم الكتاب مقترحات تفصيلية لإصلاح الأجهزة الأمنية، ومنها:

- إعادة هيكلة المؤسسات وتحديد مهامها.
- ربط الأجهزة الأمنية بالقانون والدستور.
- تدريب الأفراد على مهارات التواصل والحقوق.
- إدخال تقنيات حديثة للمراقبة دون الإخلال بالخصوصية.

٤- الإجراءات التأسيسية لبناء مركب أمني إقليمي:

يطرح المؤلف خمس خطوات تأسيسية لبناء مركب أمني إقليمي:

- صياغة عقيدة أمنية عربية غير أيديولوجية.
- بناء مراكز تفكير أمنية مشتركة.
- تبادل الخبرات والمعلومات بين الدول.
- استثمار التكنولوجيا الأمنية بموارد محلية.
- إشراك المجتمع المدني في رسم السياسات الأمنية.

٥- اللعبة الكبرى- موازين القوى والأدوات:

يركّز هذا المحور على أهمية فهم «اللعبة الكبرى» في المنطقة، وكيف نشأ هذا المصطلح، ويشير المؤلف إلى أن ظهور المصطلح كان في النزاع بين بريطانيا وروسيا على أفغانستان حيث كانت تخشى بريطانيا من وصول روسيا إلى الهند، ثمَّ ظهر مصطلح المسألة الشرقية والتي تشير إلى التحالفات بين الدول الغربية في نهاية القرن التاسع عشر لاقتسام أراضي الدولة العثمانية، وما نتج عنه من الصراع على الدولة العثمانية بين الدول.

وبيّن المؤلف أنَّ عملية تفكيك المعضلة العربية يجب أن تبدأ من تحقيق الأمن الإنساني بديلاً عن الصيغ الموجودة، والتي تتمثل في تغول مؤسسات الحكم الاستبدادية المعزولة عن المجتمع، ومن ثمَّ الاعتماد على النظرية الواقعية في بناء الدولة، وبعدها تأتي الاستفادة من النظرية الليبرالية في توسيع دائرة التحالفات الخارجية وتحفيز دور المنظومات الأمنية خارج إطار الإقليم، ومحاولة

الخطوات التأسيسية الخمس لبناء مركَّب أمني إقليمي

التوصل إلى مفاهيم مشتركة للأمن ومخاطر غيابه من منظور المدرسة البنائية.

> **لا أمن بلا عدالة اجتماعية؛ ولا استقرار دون مصالحة مع الجغرافيا والتاريخ**

ويعرض المؤلف المكونات التي يمكن الاستفادة منها لرسم خريطة اللعبة الكبرى والتي يمكن تلخصيها بما يلي:

الخريطة: تُظهر تمركز القوى الأجنبية، ومناطق النزاع الساخنة، لمعرفة القوى الفاعلة واللاعبين الأساسيين، والتغير الذي قد يطرأ على الخريطة، مع تحديد القوى والدول المتوسطة والصغيرة.

الوزن الاستراتيجي: من خلالها معرفة الدول الأطراف كالسعودية ومصر وتركيا والتي تمثل ثقلاً حاسمًا، ويمكن أن تكون طرفًا أساسيًا في اللعبة الكبرى في المنطقة.

أدوات التأثير: الإعلام، الاقتصاد، الشركات الأمنية، السيبرانية، وكذلك تحديد الأدوات سواء العسكرية أو المعاهدات أو غير ذلك، لأنّ "مَن لا يملك أدوات اللعبة، لا يملك حق الجلوس إلى طاولتها".

٦- استراتيجية إدارة الصراع:

يناقش الكتاب أربعة نماذج لإدارة الصراع:

- الردع: عبر بناء قوة كافية لثني الخصم.
- الاحتواء: محاصرة الخصوم إقليميًا.
- المناورة: اللعب على التوازنات الدولية.
- التحصين الداخلي: يجعل المجتمعات أكثر مناعة ضد الفوضى.

٧- العودة إلى الأصول- الأمن من منظور حضاري:

في الخاتمة، يعود المؤلف إلى ضرورة استلهام النموذج الإسلامي في الأمن، حيث كرامة الإنسان هي أساس الحماية.

العقد السياسي يقوم على الشورى والمشاركة لا القهر، والأمن جزء من مقاصد الشريعة لا مجرَّد جهاز دولة، و"الأمن ليس درعًا، بل بيئة؛ وليس مجرد غياب تهديد، بل حضور طمأنينة".

خاتمة/ نحو أمن عربي للإنسان لا النظام:

كتاب د. بشير زين العابدين ليس مجرد دليل أكاديمي، بل محاولة تأسيسية لإعادة التفكير بالأمن من منطلق حضاري واقعي وإنساني، عبر تشريح المفاهيم، ونقد التوظيف السلطوي، وطرح نماذج إصلاحية، يفتح المؤلف الباب لنقاش عربي جديد حول: ماذا نريد من الأمن؟ ولمن؟ وكيف؟

إنها دعوة للانتقال من عسكرة البقاء إلى مدنية الحماية، ومن خوف الأنظمة إلى أمان الشعوب.

> **الأمن ليس درعًا، بل بيئة؛ وليس مجرد غياب تهديد، بل حضور طمأنينة**

سر التميز رعاية التخصص

د. محمد زكريا الحمد

في أروقة المعرفة النبيلة، حيث تتدفق ينابيع الحكمة، يتفتح التفوق كزهرة نادرة تتوق إلى عناية عاشق وفيّ.

التخصص ليس دربًا عابرًا، بل وطن يحتضن أحلام المرء، معرفة عمودية تتجذر بعمق، تحفر بصيرتها في تربة العلم لتثمر جواهر المعاني. ومن أحب تخصصه بإخلاص سُقي من ينابيع الإبداع، فأزهرت أفكاره وارفة تعانق عنان السماء، بينما عدم التخصص معرفة أفقية متسعة على السطح، شمولية متشتتة تجعل الإنسان يعرف شيئًا عن الأشياء دون غوص في عمق. المتخصص يعرف كل شيء عن شيء، يبني صرح معرفته بثبات، بينما غيره يلهث في سهوب الشمولية.

التخصص عشق يغري بالغوص في بحور العلم، حماية من التيه بين التخصصات التي قد تذريه سطحيًا. كلما أنصتَّ إلى همسات تخصّصك، وأكرمته بالتأمل العميق، كساك وشاح التميّز يزين كتفيك.

احتضن تخصصك كنجم المسافر؛ ففي رعايته تكمن أسرار التفوق، وفي وفائك له يتجلى نور الإنجاز. إنه جناح يرفعك إلى آفاق الإبداع، بستان ترويه بعناية لتثمر وردًا من النجاح. فالتخصص طريق الخلود، يمنحك عمقًا يميزك، بينما الشمولية دون جذور قد تذروك في رمال الضياع.

لا تكن بعيدًا في العيد

أ. أحمد سندة

شرع الله جل وعلا لعباده العيد، موسم سرور وفرح، نكثر فيه الذكر والتكبير، مرددين: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر، ولله الحمد، فما أجمل هذا الترديد.

يعود على العباد بالرحمات، ويعود العباد على بعضهم البعض بالتهاني فالكل سعيد.

وهنا يحذر العبد الفطن من أن يكون عن ربه بعيدًا؛ فمجامع الأهل والخلان مواسم لنشر الفرحة والسرور، والتوسعة بالحلال الطيب، والاطمئنان على الأحوال، تزينها ابتسامات وبُشرَيات، بعيدًا عن الغيبة والنميمة والاجتماع على المعاصي.

أما المجالس فيكسوها الهناء، كيف لا وقد تلاقى فيها ذوو الأرحام بعد طول عناء وتشريد!

وهنا دعني أهمس منذرًا: من (الموت) أقصد الاختلاط، فما ذاك بأمر رشيد.

أجهزة الهاتف ترقص طربًا برسائل التحايا، فلا متذمر من كثرتها إنْ بالواتساب أو البريد.

ففي كل حال تذكر أنك في العيد، فالعطايا تترى، فلا تكن عن الله بعيدًا.

كم نحن بحاجة إلى قراءة واعية؟!

د. محمد ماهر قدسي

في زوايا العقول القديمة، تنام أفكارٌ شاخت قبل أوانها، ترفض التغيير وتخشى النور.

كم من بابٍ أوصدناه لأن المفتاح كان جديدًا، وكم من طريقٍ تجاهلناه لأن خريطته لم تُرسم بعد! إن الجمود ليس حكمة، والتقليد الأعمى ليس وفاءً، فالعقل الذي لا يجدد أفكاره كالنهر إذا توقف، يتحول إلى مستنقع.

التجديد ليس خيانةً للماضي، بل وفاءٌ له بعيون ترى الأبعد. نُعيد التفكير لا لننقض، بل لنفهم، نُغربل الموروث لا لننكره، بل لنُبقي منه ما يليق بعصرٍ يتسارع، وبإنسانٍ يتغير.

كل فكرةٍ لا تقبل التطور تموت، وكل عقلٍ لا يفتح نوافذه للضوء يختنق. دعونا نُجدد أفكارنا كما يُجدد الربيع وجه الأرض، وكما تُجدد الحياة نفسها في كل فجر جديد.

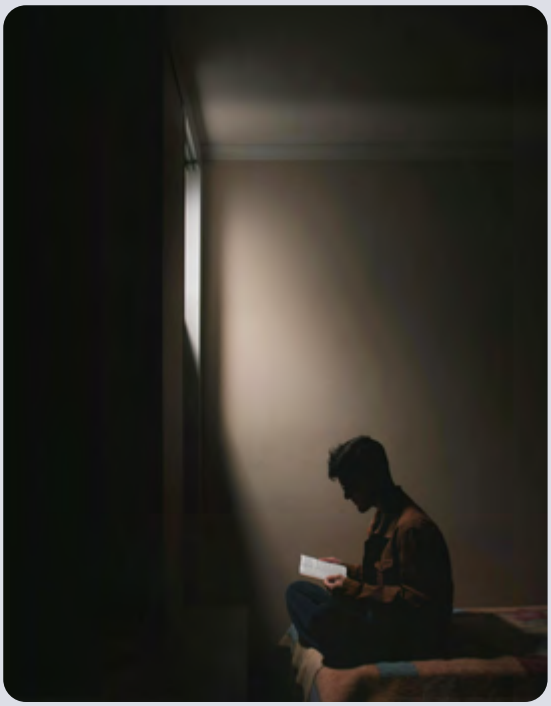

إشراقات المحبة

أ. مصطفى محمد رجب عمر

موسى عليه السَّلامُ مِنْ أولي العزم مِنَ الرسل، منحهُ اللهُ القوَّةَ والحكمةَ والنبوَّة، وأيَّدهُ بالمعجزاتِ الدالَّةِ على صدقِ نبوَّته، وألقى الله عليه محبته، فقال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾.

ألقتهُ أمُّهُ في اليمِّ بعد أنْ ربطَ اللهُ على قلبها، وحرَّم عليه المراضع ليردَّه إلى أمِّه بقدرته وتدبيره سبحانه. ألم تكن المحبة مَنْ دفعَها إلى إلقائه في اليم؟!

وفي قصرِ فرعونَ هيأَ اللهُ لهُ امرأةً صالحةً تولَّتْ رعايتَه طفلاً صغيرًا، وآمنتْ بصدقه رسولاً نبيًّا، آسية امرأةُ فرعونَ التي حينَ عزمَ فرعونُ على قتلها رفعتْ عينَيها إلى السَّماء وقالتْ: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾. ألم تكن المحبة هي الطريق لإنارة قلبها بنعيم الآخرة؟!

وتتبعته أخته وهو في القصر، فعرفته وهم لا يعلمون، ولما حُرِّمت عليه المراضع دلتهم على أمه كي تقر عينُها ولا تحزن، ألم تكن المحبة هي من حرك الأخت الحنون إلى هذا التدبير الجميل؟!

لقد دعا موسى المحبُّ لأخيه بالوزارة، فكان حبُّه سببًا لنبوة هارونَ ورسالته.

نعم... إنَّها المحبة، قال تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى﴾.

ذات الشَّوكَة

د.خير الله طالب

حين أفلتت قافلة قريش من المسلمين، واستنفر المشركون للقتال، ولم يكن المسلمون مستعدِّين، تمنَّى فريقٌ منهم الظفر بالقافلة وتجنب القتال، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، فاستشار النبي ﷺ أصحابه ﷺ، فسمع منهم ما أحب، وكان النصر في بدر يوم الفرقان الذي أراده الله سبحانه.

كذلك بدأت ثورة الشام شعبية سلمية، لكن الله تعالى أراد أمرًا آخر، وكان في ذلك آلام جسام، ما عرف الناس قيمتها إلا بعد التحرير، فماذا عما قبل النصر من مكاسب للجهاد والهجرة؟

تظهر أولى المكتسبات في تحرر النفوس من الخوف وخروج الوهن منها (حب الدنيا وكراهية الموت). فحينما تُفرض المواجهة على الشعوب، فإن المواجهة وكثرة التعرض للمخاوف تبدد الخوف من القلوب، فتسكن بالطمأنينة لكثرة ما ترى من حوادث السلامة في ظروف العطب المحتم. وهذا ما سرده أعداد لا تحصى ممن تعرضوا للمخاطر فخرجوا سالمين، فصار الإقدام سمتهم والشجاعة صفتهم. وما ترك قوم الجهاد إلا من الوهن، وما زادوا بترك الجهاد إلا وهنًا.

يتمثل المكتسب الثاني في التلاحم المجتمعي عند البأس، وهذا مشهود في الحياة معهود عند الناس، فإنهم إذا عدموا البأس تجاه عدوهم، صار بأسهم بينهم، فتمزقوا، ولا يجمعهم مثل مداهمة عدوهم لهم. وقد شهدت الشام صنوفًا من التلاحم الشعبي والدعوي وغيره.

بينما يتجسد المكتسب الثالث في ولادة الفرص النادرة من رحم الشدائد القاسية، ولا يدرك ذلك إلا تامّ الرضى الموعود بأن يرضيه الله تعالى. وأكبر تلك الفرص تمثلت في حرية أعقبت التهجير، فأتاحت فرصة نادرة للتعلم والإعداد والعمل. كما كان من الفرص الكبيرة: تنقية الجهاد بانكشاف الغلو، وسقوط المشروع الباطني بأجنحته الداخلية والخارجية، وزوال بنية الطغيان.

والثمرة الجامعة لتلك المكتسبات أن الجهاد مراجعة للدين، وإقبال على رب العالمين، الذي به يستنزل العون والغوث والسكينة، وتسخر به جنود الله لعباده المقاتلين في سبيله صفًا، وإلا فإنه (إذا تبايعتم بالعِينة، وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[1]. فالركون إلى الدنيا مانع من الجهاد، والركون إلى الذين ظلموا مبطل لثمراته.

لكن أهل الشام اليوم يرجون ازدهار البلاد ورغد العيش، ولا يدرون ماذا خبأ الله لهم من نعيم الدنيا، أو نعيم الآخرة بالجهاد مجددًا، فإن كانت الأولى كانت فرصة للبناء والإصلاح، وإن كانت الأخرى فإن بركات الجهاد أعظم، ولا نتمنى لقاء العدو.

وهنا تتباين طرائق المجاهدين والقاعدين من جديد، كما تباينت في الجهاد السابق ما بين مجاهد وقاعد، وبين مهاجر ومرابط، وبين معلن موقفه أو مبطنه، والله أعلم بالصادقين، و﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾، فكم من مقاتل فُتن عن الجهاد فأقبل على الدنيا، وكم من قاعد اعتبر بحال أهله المجاهدين فاستدرك، فصار كأنس بن النضر لما فاتته بدر، فعزم على أن يري الله من نفسه خيرًا، فقاتل في أُحد مقدامًا حتى تمزق جسده، فما عرفه إلا أخته ببنانه، وتذكر به المسلمون قول الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

الفضلاء يعرفون الفضل لغيرهم، فلا يستوي عندهم طالب العير مع ناشد النفير، ولا صاحب القافلة والغنيمة مع محبّ الشهادة، ملتزمين ميزان الرحمن: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾، مستحضرين وصية الحبيب: (من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق)، واثقين بالوعد الكريم: (مَن سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه)، آملين عند العجز بكرامة: (من خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا)[2].

يعلمون أيضًا أن الرباط على (العمل في سبيل الله) قد يشق على النفوس أكثر من (القتال في سبيل الله)، فيرابطون في ثغور العلم المجاهد، والجهاد المتعلم، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويعلمون أنَّ الجهاد دعوة، والشهادة اصطفاء، وأنَّ المجتمع حاضن، والقادة العلماء، وأنَّ النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأنَّ مع العسر يسرًا.

وهكذا تتكامل نفرة الجهاد مع نفرة العلم، وصولاً إلى طوفان الأمة القادم لا محالة، وإن كره الكارهون ذات الشوكة، وخيرٌ لهم تحضير النفوس لو كانوا يعلمون.

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢).

(٢) الحديث الأول أخرجه مسلم (١٩١٠) والثاني أخرجه مسلم (١٩٠٩)، والثالث أخرج مسلم (١٨٩٥).

رواء

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com